منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

بحوث ودراسات في التاريخ الليبي

1911 - 1943

ليبيا و الغزو الثقافي الايطالي

الدكتور صلاح الدين حسن السوري

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى



1998 - ف

ليبيا والغزو الثقافي الإيطالي

د. صلاح الدين حسَن السوري (*)

سنتناول في هذا الفصل تجربة خاصة مميزة وهي محاولة الغزو الثقافي الإيطالي لليبيا، وسنقتصر فيها على دراسة السياسة الثقافية الإيطالية حيال ليبيا، والكيفية التي تمت بها عملية التغلغل الثقافي، والمؤسسات المستهدفة والسبل والوسائل التي استخدمت لتحقيق تلك الأغراض.

ويجب أن نذكّر أولاً بالحقيقة المعروفة لدى الجميع وهي أن الاستعمار الإيطالي استعمار استيطاني يستهدف السيطرة على الأرض الليبية، وتجير الآلاف من الإيطاليين لاستيطانها، ثم تنميتها بأسلوب معين واستراتيجية محددة، لتصبح على مدار الزمن جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الإيطالية، وبذلك فإن سياسة إيطاليا الثقافية خططت ونظمت ونفذت في إطار ذلك الهدف الكبير.

ومن ثم فإن جميع الجهود وجهت لتفهم العقلية الليبية ومكوناتها ثم توجيهها وتسييسها لتؤدي دورها المرسوم ضمن تلك الاستراتيجية. ولعل قوة المؤسسة الدينية وأهميتها كانت في مقدمة المشكلات التي لفتت نظر إيطاليا فأولتها عناية خاصة، وأفردت لها الجهد، وخصصت

(*) عضو هيئة التدريس ـ كلية التربية ـ جامعة الفاتح ـ طرابلس.

لها الوقت، لدراستها وفهمها فهماً عميقاً، ومحاولة الاستفادة منها في تطبيق تلك السياسة.

أدركت إيطاليا تمام الإدراك أهمية الدور الذي يلعبه الدين في المجتمعات الإسلامية، وقوة المشاعر الدينية لدى الفرد فيها، واقتنعت بأن أي مساس بتلك المشاعر واستفزاز لها سيستثير العواطف ضدها، وسيذكي جذوة الحقد، ويؤجج نار العداء في نفوس المواطنين المسلمين على اختلاف مواقفهم السياسية منها. ومن ثم رأت الاستفادة من تلك الظاهرة ومحاولة توظيفها لتحقيق أغراضها، فاتبعت سياسة مدروسة محكمة، تقوم على تأكيد احترامها للدين الإسلامي، وتقديرها للمعتقدات الإسلامية، وتعاطفها أيضاً مع الأعراف والتقليد المحلية. ومن خلال كل ذلك محاولة احتواء المؤسسة الدينية بكاملها ضمن تركيبتها الإدارية السياسية، للتغلغل من خلالها إلى مختلف الأوساط الشعبية في جميع أنحاء البلاد، القريبة منها والنائية، على حد سواء[1].

وقد أعلنت إيطاليا سياستها الدينية المتعاطفة منذ البداية في المنشور الذي يحمل تاريخ 19 من أكتوبر سنة 1911 الذي أصدره الجنرال «كانيفا» بعد تمام السيطرة على مدينة طرابلس[2]. وتم تأكيدها في مناسبات مختلفة في السنوات التالية، كما جرى تطبيقها بدقة على صعيد الواقع العملي. كانت تحاول جاهدة أن تشعر المواطنين الليبيين بحسن نواياها فيما يتعلق بهذه الناحية الحساسة لديهم، وأن تولّد عندهم الاقتناع التام بعمق تفهمها وجدية تقديرها للحضارة الإسلامية

---

(1) د. صلاح الدين حسن السوري: **الاستعمار الإيطالي ومحاولة احتواء المؤسسة الدينية**، ضمن أبحاث مؤتمر التاريخ حول الإستعمار في العالم العربي في القرنين 19، 20، تونس: المركز القومي للبحوث، 3 ـ 8 أكتوبر 1983، (أعمال المؤتمر، ومن ضمنها هذا البحث، هي الآن تحت النشر).

(2) توجد نسخ من هذا المنشور في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، وقد عرض أحدها ضمن وثائق الجهاد في معرض خاص أقيم في مبنى السراي خلال شهر سبتمبر 1971.

الثرية، وللفكر الإسلامي العميق، وللتقاليد الإسلامية الأصيلة، وبأنها لم تكن في نيتها إطلاقاً أن تفرض ثقافتها عليهم[1].

وتتضح تلك السياسة على صعيد الواقع العملي من خلال مجموعة المراسيم والإجراءات، والممارسات الرسمية وغير الرسمية، التي تصدر من السلطات الإيطالية في المناسبات المختلفة ـ خاصة الدينية منها ـ فمثلاً في شهر رمضان وحتى أثناء الحرب، كانت ساعات منع التجول تخفّض أو ترفع في أغلب الأحوال، كما تطلق المدافع في الإفطار وفي الإمساك، وتقفل بيوت الدعارة المرخّص بها ويمنع المسلمون من تعاطي الخمر خلاله[2]. وكانت تقام الاحتفالات الرسمية بأعياد المسلمين والتي كان يتصدرها الوالي وكبار موظفيه[3]. وسهلت الإجراءات للراغبين في آداء فريضة الحج، وأولى الحجاج الليبيون اهتماماً خاصاً قبل سفرهم، وبعد وصولهم، وأثناء إقامتهم في الأراضي المقدسة[4].

ونظراً لمكانة المساجد عند المسلمين، من حيث كونها بيوت الله، ولدورها التربوي الاجتماعي، فقد أولتها الحكومة الإيطالية أهمية خاصة، في محاولة منها للبرهنة عملياً على حسن نواياها تجاه معتقدات المسلمين وأماكنهم المقدسة. فحافظت على استقلاليتها ضمن إدارة الأوقاف الإسلامية، التي أعيد تنظيمها بحيث استمرت كهيئة

(1) Istituto Per Gli Studi, Libia il Päeseei suoi Abitanti, Libia il Paese e i suoi Abitanti milano: Istituto Per Gili Studi, 1937, p.31 .

(2) Governo della Tripolitania, Bolletino Ufficiale, 111(19 Luglio 1916), «D.G.25 Giugno 1916, n 45, Serie B. Circa Ramadan e I'Eid Es Seghir», (Cited hereinagter as Bol. Trip).

(3) ليبيا المصورة 3 ـ 3 (ديسمبر 1937) ص 9.

(4) ليبيا المصورة 2 ـ 6 (مارس 1936) ص 3، وكان محمد علي ظافر المدني الذي توفي منذ سنوات قريبة نائباً للقنصل في السعودية، وظلت مساعداته للحجيج الليبي في ذلك الوقت موضوع حديث الأحياء منهم إلى الآن.

اعتبارية لها مجلس إدارتها، وميزانيتها، وممتلكاتها ودخلها[1]. وواصلت الكتاتيب والزوايا آداء رسالتها الدينية والعملية فساهمت، رغم تقليديتها، في الحفاظ على اللغة والدين، وبالتالي على الذاتية المتميزة للشعب الليبي، المتمثلة في أصالته وعروبته وإسلامه[2].

وقد ساهمت الحكومة في ترميم بعض المساجد، كمسجد سيدي الشنشان في طرابلس، وسيدي عبد السلام في زليطن، وسيدي رافع في البيضاء، كما بنت مجموعة من المساجد الجديدة، وخاصة في الأماكن البعيدة ـ في هون وفي مرتوبة وأم الرزم، والحنية، والبيضاء ـ. وفي جميع الأحوال كانت تقام الاحتفالات الرسمية بتلك الأعمال وكان يحضرها كبار المسؤولين الإيطاليين[3]. وإدراكاً لما لأضرحة الأولياء من مكانة لدى العامة في ذلك الوقت، فلم تفت الحكومة الإيطالية فرصة استثمارها للتقرب من المواطنين، وقد زار كل من الملك وموسوليني ـ أثناء زيارتهما لليبيا ـ ضريح سيدي رافع، وضريح سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري، وقدما الهدايا من فرش ومصابيح ثمينة، كما وزعت الهبات على الفقراء بالمناسبة[4].

وفي تلك الفترة أنشىء بيت المال، على غرار المؤسسة الإسلامية التقليدية لإدارة أموال الغائبين، وقبول الإعانات والصدقات لصالح الفقراء[5].

---

(1) أنظر: تشكيل مجلس إدارة الأوقاف Bol Trip. V (Marzo 1918), «D.G. 6, Serie A. N, 69».

(2) الكتاتيب منتشرة في جميع أنحاء البلاد، أما الزوايا فقد كانت قليلة نسبياً ومن أهمها زاوية الأبشات في الزاوية، وزاوية سيدي عبد السلام في زليطن، وزاوية أحمد باشا وزاوية ميزران في طرابلس.

(3) ليبيا المصورة، 2، 5 (فبراير ـ مارس 1937) الصفحات 93 ـ 94.

(4) ليبيا المصورة 2، 6(مارس 1937) الصفحات 18، 19، وأيضاً ليبيا المصورة 4، 2 (نوفمبر 1939) ص 13.

(5) ليبيا المصورة 2، 5 (فبراير ـ مارس 1937) ص 9.

وفي إطار هذه السياسة منعت الكنيسة من ممارسة أي نشاطات تبشيرية في ليبيا رغم تعالي النداءات من بعض الكرادلة والتي كانت تقابل دائماً بالرفض الذي لا سبيل للتراجع فيه. تلك السياسة تحقق هدفاً مزدوجاً أولهما: تفادي الاصطدام بالمواطنين الليبيين، والثاني: عدم إتاحة الفرصة للكنيسة لاكتساب موقع قوة في البلاد لما بين الدولة والكنيسة في ذلك الوقت من خلاف[1]. ومن ناحية أخرى كان هناك تباه وإشادة بحركة الاستشراق الإيطالية ودراستها الموضوعية للإسلام والمسلمين. وقد اتخذت مادة دعائية أثيرت في مختلف المحافل الإعلامية. وبطبيعة الحال كان كتاب لاورا فاليري (Laura Vaglieri)، دفاع عن الإسلام (Apologia dell Islamismo) وكتاب ليوني كايتاني (Leone Caetani) حوليات الإسلام (Annali dell'Islam) وكتابات كارلو نالينو (Carlo Nallino) عن الإسلام بدائرة المعارف الإيطالية، ونشاطات مؤسسة الدراسات الشرقية في نابولي (Istituto Orientale) ومجلتها المشرق الحديث (Oriente Moderno) والمدرسة الشرقية بروما (Scuola Orientale) ومجلتها مجلة الدراسات الشرقية (Rivista degli Studi Orientali)، كلها أمثلة لذلك الاتجاه[2].

أبدى الإيطاليون اهتماماً خاصاً بالقضاء الشرعي، وبالمحاكم الشرعية، والقضاة، وذلك لمكانة الشريعة الإسلامية عند المسلمين ودورها في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وأيضاً للقدسية المحاطة بالمحاكم، والإجلال الذي يتمتع به القاضي لدى العامة التي تمثل الأغلبية الساحقة من المواطنين، لذلك رأوا إمكانية استغلال تلك المؤسسات سياسياً في محاولة لاكتساب رضا المواطنين، عن طريق احترام استقلالية هذه المؤسسات، وتقديرهم للقائمين عليها، وأيضاً

(1) ليبيا المصورة 5، 2(فبراير - مارس 1937) ص 93، وكذلك المناقشات التي دارت حول دور الكنيسة الكاثوليكية في مؤتمر تاريخ الاستعمار في الوطن العربي المشار إليه أعلاه.

(2) ليبيا المصورة 1، 1(اكتوبر 1935) الصفحتين 25، 26.

عن طريق التغلغل من خلالها إلى جميع أنحاء البلاد وتأكيد سلطاتهم فيها.

وكإجراء تنظيمي لتحقيق تلك الأغراض، أعيد تنظيم المحاكم الشرعية في بناء هرمي على رأسه المحكمة الشرعية العليا لتعمل كمحكمة استئناف لجميع المحاكم الشرعية الأخرى، وأعيد تنظيم هيئتها القضائية لتكون من ستة أعضاء، أربعة منهم مالكيون، أما الإثنان الآخران فأحدهما أباضي والآخر حنفي [1] - مراعاة للانتماءات المذهبية في البلاد -، عندئذ، ونسبتها المئوية.

ونظراً لمكانة القضاة التي ذكرناها فقد خصتهم الحكومة الإيطالية بامتيازات استثنائية - دون سائر بقية الموظفين الليبيين - حيث اعتمدوا كموظفين رسميين مصنفين (Di Ruolo)، وأعطيت لهم الاستقلالية في أعمالهم، ولم يكونوا عرضة للعزل التعسفي، وخصصت لهم المرتبات العالية، كما خلعت عليهم الألقاب والرتب الشرفية، أمثال الفارس (Cavalière). والفارس الضابط (Cavalière Ufficicale) التي كانت تمنح للأعيان، وأيضاً للأفراد الذين قدموا خدمات خاصة للدولة [2].

وجرى تنظيم القضاة في بناء هرمي حسب التقادم، فبمقتضى الجدول الذي تضمنه المرسوم الولائي المؤرخ في 15 من أكتوبر سنة 1926 كان على رأس القائمة، وفي درجة متميزة رئيس المحكمة الشرعية العليا، وجاء بعده قضاتها، ثم بقية القضاة الذي قسموا إلى ثلاث مراتب، وبعدهم في المرتبة الأخيرة جاء نواب القضاة، وفي نفس الجدول وجد المفاتي، الذين قسموا إلى مرتبتين، والكتّاب الشرعيون وقسموا أيضاً إلى مرتبتين [3]. وظهر تعديل طفيف في الجدول الذي صدر في المرسوم الولائي المؤرخ في 24 من فبراير سنة

---

(1) تشكيل المحكمة (16 Luglio 1922) Bol, Trip.

(2) Bol, Trip. IX, 14 (16 Maggio 1922).
أنظر في القائمة على سبيل المثال: القاضي عبد الرحمن البوصيري والذي منح رتبة الكافاليري أوفتشالي (Cavalicre Ufficiale) أسوة ببعض الأعيان.

(3) Bol. Trip.. XIII (1Novembre 1926) «D.G. 15 Ottober 1926. Serie A.N. 815».

1939 والذي نظم هو الآخر بناء على التقادم في الوظيفة. ففي هذا الجدول تم الإبقاء على مفت واحد لكل البلاد ووضع على رأس القائمة - وهي وظيفة استشارية شرفية - اختير لها الشيخ محمد أبو الإسعاد العالم، خريج الأزهر منذ أيام العثمانيين والذي عمل بالقضاء والإفتاء دون انقطاع، واستمر مفتياً للبلاد إلى أن توفي خلال فترة الاستقلال، تلا المفتي في المرتبة رئيس وأعضاء المحكمة الشرعية العليا، وبعدهم بقية القضاة الذين قسموا على ثلاث مراتب متتالية، جاء بعدهم نواب القضاة، وأخيراً الكتّاب الشرعيون[1].

وبحكم وظيفة القاضي ووضعه الاجتماعي كان يكلف بمهام أخرى مثل عضوية المجالس ذات العلاقة الدينية كالأوقاف[2]. ويعين أحياناً محلفاً في المحاكم المدنية الأخرى أسوة بالأعيان[3]. والأهم من هذه وتلك أنه يصبح تلقائياً وبحكم الوظيفة عضواً في المجالس الإدارية في المقاطعات والمتصرفيات والمديريات حسب الحالة. وفي الاحتفالات الرسمية يتخذ القاضي مجلسه في مكان الصدارة، وفي أغلب الأحيان يكون في مقدمة الخطباء، وكثيراً ما يفرض عليه منصبه الحديث حتى في الاحتفالات السياسية مثل الاحتفالات بموسوليني أثناء زيارته البلاد سنة 1937، وبالملك أثناء زيارته لها في العام التالي، حيث استقبل كل منهما في كل بلد بكلمة ترحيبية من القاضي[4]، وكذلك كان يرسل ضمن الوفود التي كانت ترسل إلى إيطاليا من آن لآخر.

---

(1) Govermo della Libia, Bollettino Ufficiale XIII, n 38 as Bol, Lib) 10 Ottobre 1935) p. 1376 (hereiafter cited as Bol. Kib).

(2) Bol, Trip. V(I Marzo 1918). «D.G. 6 Febbraio 1918, Seri A.N. 69».
أنظر تشكيل مجلس إدارة الأوقاف.

(3) أنظر قائمة المحلفين، .Bol, Trip.. XI(5 Dicembre 1932)

(4) Libia, il Paese e i Suoi Abitanti, p. 30.
وانظر ليبيا المصورة 2 ـ 6 (مارس 1937) الصفحات 10، 18، 19، 20، وليبيا المصورة 3 ـ 8 (مايو 1938) ص 2 وانظر كذلك جريدة العدل 26 مارس 1937.

تلك العلاقة الحسنة القائمة بين القضاة ورجال الدين من جانب والسلطات الإيطالية من جانب آخر، استغلت من أجل القيام ببعض الإصلاحات الاجتماعية والدينية، والأمثلة على ذلك كثيرة من بينها الاجتماع الذي عقده المارشال بالبو - والي ليبيا - مع بعض القضاة وعلماء الدين في سبتمبر سنة 1935 والذي ناقش فيه بعض القضايا الاجتماعية، واتخذ القرارات بشأنها، والتي من بينها منع الدخول بالبنت قبل سنّ الخامسة عشر، ومنع المغالاة في المهور والجهاز، ومنع الطواف به في الشوارع للمباهاة، ومنع التبذير في أيام المآتم، وتحديد ليالي الحفلات التي تقام في الزوايا بمناسبة المولد، وقصر ما يقام فيها على ما لا يخالف الشريعة[1].

إن إعادة تنظيم المؤسسة القضائية الشرعية بهذه الكيفية وإعطاء العاملين فيها مثل تلك الصلاحيات والامتيازات وإظهار التقدير والاحترام لهم، لاعتراف رسمي من جانب السلطة للمكانة الاجتماعية الخاصة التي كانوا يتمتعون بها. وقد استغلها البعض في تكوين علاقات خاصة أبعد من حدود الوظيفة والتزاماتها الرسمية، فأصبحت لهم اهتماماتهم السياسية وأخذوا يتقربون من الإيطاليين، وذوي السلطة، ولم يترددوا في التعبير عن ولائهم وتعلقهم بالنظام. وكان بعضهم من الشعراء والأدباء الذين دبجوا المقالات ونظموا القصائد، كما سنرى، في مختلف المناسبات. وكانت لتلك العلاقة الوثيقة بين السلطات الإيطالية والقضاة أهمية خاصة في تلك الفترة حيث وسائل الاتصال الإعلامية تكاد تكون منعدمة، فاستعين ببعض القضاة للمساهمة في ذلك الدور، خاصة أن القاضي أقرب إلى المواطن من مدير الناحية، وذلك بحكم مكانة الأول الدينية من جهة، واستقلاليته من جهة أخرى. ومما يلفت النظر، تلك المراسلات التي تصل من قضاة ونواب قضاة

(1) ليبيا المصورة - 1 - (أكتوبر 1935) الصفحات 4 - 6، وليبيا المصورة، 5 مايو 1940 ص 9.

في أماكن نائية في ذلك الوقت، بل وحتى الآن، أمثال: هون وسبها وتراغن إلخ.. يصفون مشاعر الناس «المتطلعة بشغف» لزيارة موسوليني ـ على سبيل المثال ـ ويبالغون في الوصف ومنهم من يبعث بأبيات شعرية بالمناسبة[1].

وفيما يلي نورد نماذج شعرية وأخرى نثرية بالقدر الذي يسمح به موضوع هذا الفصل المحدد لإعطاء صورة ولو مبسطة عن الاتجاه الثقافي الذي نما ضمن السياسة الدينية الإيطالية ووجد فرصة التعبير عن نفسه أيضاً في الصحافة المحلية الموجهة:

فمن تحية شكر وجهها أحد الشيوخ إلى بادوليو نقتطف الأبيات التالية[2]:

ما استبق القوم فضلاً عزَّ نائله — إلا غدا المرشال فيه عواناً
أمكسب الملك فخراً لا يماثله — كسرى ولا قيصر عدلاً ووجداناً
يا دولة المرشال اليوم قد فرضت — آيات شكرك إجلالاً وإمكاناً
إني أهنىء طرابلس بدولتكم — إذ كنت أنت لها عوناً ومعواناً

ومن قصيدة في توديعه[3]:

نبأ سرى برحيل بادوليو الذي — ملأ القلوب محبة وحبورا
يا آسفاً لرحيله فانهض إلى — هذا الوداع إن استطعت حضورا
سر يا بدوليو بالرفاء مخلفاً — خلفاً سعيداً بالأمور خبيرا
وعليك منا ألف ألف تحية — يجري شذاها عنبراً وعطيرا

ومن قصيدة في استقبال موسوليني[4]:

بالحزم أصبح موسوليني مالكاً — ثقة البلاد فأصبحت تهواه

---

(1) أنظر جريدة الرقيب العتيد ـ كمثال ـ عدد 4 فبراير 1937، الصفحة الرابعة وهي صفحة كاملة في هذه الموضوعات.
(2) الرقيب العتيد، عدد 5 ديسمبر 1929.
(3) الرقيب العتيد، عدد 7 ديسمبر 1933.
(4) ليبيا المصورة 2، 5 (فبراير ـ مارس 1937) ص 98.

الواصل الغرض العزيز وصاله　　والقاطع الشوط البعيد مداه
يتجشم الأخطار لا متهيباً　　فينال في عقبى تهن مناه
ومهمة الإقدام قد تركت له　　أثراً يطيب مدى الزمان شذاه

وقال آخر في نفس المناسبة[1]:

لمن هذا السنا والاحتفال　　لمن تسعى السنابك والرجال
لمن خفقت بيارق جيش روما　　لماذا غص بالعرب المجال
نعم قد زار درنا موسوليني　　فأشرقت الأباطح والجبال
مزار صار في التاريخ ذكرى　　وجاد على الجنوب به الشمال

ومن قصيدة في رثاء بالبو[2]:

إن مات بالبو لم تمت أعماله　　يحيا العظيم وفي القبور دفين
عظم المصاب على النفوس فخطبه　　جلل وهول الرزء فينا كمين
همدت له الأرواح خاشعة وكم　　ذرفت على موت الفقيد عيون
سالت دموع الحزن من أثرى النوى　　وتلبست بالمخلصين شجون

وفي مجال النثر تراوحت المداخلات بين المراسلات العادية، والردود المخصصة في مجالات معينة، وكلمات المناسبات الرسمية، والقطع الأدبية المجردة:

في كلمة ترحيبية ألقاها القاضي في طرابلس مرحباً بموسوليني لدى وصوله جامع قرجي[3]:

«أيها الزعيم:

إني بالأصالة عن نفسي ونيابة عن رجال الشرع الشريف، أقدم لك خير تحية، وقلوبنا مفعمة بالولاء والإخلاص، وألسنتنا لاهجة بالدعاء، وعيوننا مقصورة نظرها إليك، لا تبصر غيرك.

---

(1) نفس المرجع السابق، الصفحتان 99 ـ 100.
(2) ليبيا المصورة 5 ـ 10(يوليو 1940)، ص 16.
(3) العدل، 26 مارس 1937.

«إنك بزيارتك هذه لجوامعنا، لقد أردت أن تأتي ببرهان ساطع على احترامك للإسلام والمسلمين. لما كان الشكر قيد المنن الموجود، وحرر النعم المفقود، فلأغتنمنّ فرصة حضورك بيننا، هذه الفرصة الثمينة لأعرب لك عن صميم شكرنا عما نالته بفضل الفاشزم، الذي أنت زعيمه، بلادنا هذه، من الرقي ورغد العيش، ومن نشر لواء العدل فيها، وحرمة ديننا وشريعتنا السمحاء، بحيث حق لنا أن نعد أنفسنا من السعداء في ظل العلم المثلث اللون... وأنّى لنا أن ننسى كل ما أيدت به الإسلام من قول وفعل في عدة مواقف من مواقفك الدولية المشهورة، فحزت بذلك إجماع أربعمائة مليون مسلم على تحبيذ أعمالك هذه، ونلت عطفهم الشديد، فما علينا إلا أن نرفع أكف الدعاء إلى الله عزّ وجلّ، بأن يديم أيامك نصراً واعتزازاً، وأن يزيد على الدوام إيطاليا الفاشيستية قوة وشوكة في العالم. اللهم استجب لدعائنا هذا برحمتك يا أرحم الراحمين».

وفي رد على منشور وقعه السعداوي في بلاد الشام ينتقد فيه النظام الفاشيستي[1]:

«... يا بشير أفندي إن هذه الولاية بعد أن سببتم أنتم ومن معكم لها مما تعهدونه من الويل والخراب وبلعتم الأموال ويتمتم الأطفال بصورة غير مرضية... أصبحت طرابلس بفضل الحكومة الفاشيستية في صورة تضاهي المدن العظام في العمران والرقي والتمدن ونشر العلوم بالمعارف والأمن التام والرفاهية، وإننا معشر المسلمين أكبر شيء يهمنا هو الدين، فلتعلم أن الحرية التامة، في معتقداتنا، وفي عاداتنا، وفي احترام شرائعنا الدينية. ولنا السلطة التامة في محاكمنا الشرعية، بصورة لم يعهد لها مثيل في الماضي، بل ولا توجد اليوم في الولايات الإسلامية الأخرى...».

(1) العدل، 17 يوليو 1937.

وقال قاض آخر في رثاء بالبو في موضوع بعنوان: «بالبو لا يزال حيّاً»[1]: «نعم لا يزال حياً ذلك البطل المصلح مارشال الجو، وأربع الأربعة، ايتالو بالبو. حياً في قلوب الليبيين، حياً في مشاريعه التي لن تموت، حياً بأعماله الخالدة، حياً في ميتته ميتة البطولة والفخار وهو يذب عن عظمة إيطاليا ومجد روما...

«إن ليبيا الدامعة المتوجعة على فقده لتفخر وتزخر بمشاريعه هذه الهائلة التي خلد بها. فها هي الطريق الساحلية التي تحمل اسمه اليوم تنادي بأفصح لسان عن مزاياه، وها هي اليوم القرى الزراعية والمؤسسات العمرانية، والمدرسة الإسلامية، والمساجد الدينية، والإصلاحات المتعددة، تنشد أبلغ قصيدة في رثاء الفقيد الخالد.

«... وإذا كان لشخصية بالبو، وتضحية بالبو، وعدالة بالبو، وإقدام بالبو، ما دفع ليبيا في سنوات قليلة إلى قطع هذه المراحل البعيدة في المدنية والنظام والرقي، فإن في خلفه المحارب القديم والأسد الهصور ومركيز بنغلي مارشال إيطاليا، رودولفو غراسياني، حائز ثقة الزعيم، والركن الوطيد من أركان جيش الأمبراطورية، ما يمسح من دموع ليبيا الثكلى، وأن فيه لعزاء لفقد الراحل الكريم...».

ونكتفي بما تقدم من النماذج لنذكر مرة أخرى بأن إيطاليا قد تولت تنظيم المؤسسة القضائية الدينية بالصورة التي شرحناها لتؤدي وظيفتها التقليدية المعروفة، وأيضاً لتؤدي المهام الجديدة التي أنيطت بها، بصورة عفوية تلقائية وكأنها تنفذ اتفاقاً ضمنياً.

أما الطرق الصوفية فقد أوقف منها ما له نشاط سياسي معادٍ للاستعمار، وتم بالتدريج استمالة الفرق الصوفية المحضة، ذات الاهتمام بالجذب والإذكار، عن طريق شيوخها بالإحسان إليهم مادياً

---

(1) ليبيا المصورة 5 ـ 10(يوليو 1940) ص 38.

ومعنوياً، إلى أن تم في النهاية استيعابها هي الأخرى، وتوجيهها في نفس الاتجاه، فكانت بذلك مشاركتها في الاحتفالات السياسية بطريقتها الاستعراضية المعروفة حيث كانت تخرج وراء شيوخها بدفوفها وطبولها وأعلامها، كما حدث في زيارة موسوليني الأخيرة التي تمت خلال شهر مارس سنة 1937 والتي بدأها من امساعد في الحدود الشرقية حيث أذن بافتتاح الطريق الساحلي وزار المدن الليبية من أقصى الشرق إلى أن توقف على الحدود الغربية. وكان من ضمن المستقبلين: الطريقة العروسية التي تفننت في تزيين صورة موسوليني وكذلك زاوية العيساوية، والزاوية الرفاعية، التي كانت راياتها محلاة بشارة الليتوريو[1].

وعلى العموم فقد كان موسوليني يتابع بنفسه السياسة الدينية الإيطالية، ويؤكدها في زيارته للمساجد والأضرحة، وفي حسن استقباله للقضاة ولعلماء الدين، وفي خطبه البليغة في تلك المناسبات. وكان يتودد ـ كما ذكرنا ـ للمسلمين والزعامات الإسلامية في الداخل والخارج ويحاول إظهار نفسه على أنه حامي حمى الإسلام. وقد بلغت حركاته الاستعراضية ذروتها، عندما أقيم له احتفال كبير يوم 19 من مارس 1937، في سيدي بوغرارة بمنطقة سوق الجمعة، احتشد فيه ثلاثة آلاف فارس من المشائخ والأعيان وفي مقدمتهم الزعامات الليبية المعتمدة في ذلك العهد، وعندها تقدم كبيرهم «يحمل بين يديه سيف الإسلام» وكما تصف الموقف إحدى الدوريات الهامة في ذلك الوقت: «بين السكوت العام دوى في الجو صوت ذلك الشيخ، تبدو من نبراته علائم التأثر العظيم الذي تملّك نفسه. فهل أعاد له منظر ذلك الحفل ذكريات الماضي ومواقف البسالة والإقدام على المخاطر في سبيل إيطاليا التي تجدد اليوم عهد ارتباط بلاده وقومه بها[2]؟.. وقف ليقول:

(1) ليبيا المصورة 2 ـ 6 (مارس 1937) ص 16.

(2) نفس المرجع، ص 26.

«بالنيابة عن عساكر ومسلمي ليبيا المفتخرين بأنهم أبناء إيطاليا الفاشيستية، أتشرف بتقديم سيف الإسلام هذا القاطع إليك أيها الزعيم المظفر، إن العالم الإسلامي بأجمعه لتهتز قلوبه في هذه الدقيقة إلى جانب قلوبنا المفعمة إعجاباً وآمالاً إذ نرى في شخصك رجل الدنيا العظيم الذي تجري على يده المتينة أعنّة مقادير قوم يخلصون التبعية لإيطاليا الآن وعلى الدوام. «.. فتقبل موسوليني الهدية، واستل السيف من غمده، وهزه في الهواء ثلاث مرات مردداً بأعلى صوته ثلاث مرات عبارة الاستنفار الليبية التقليدية: «يا أولاد».. ورددها معه الفرسان فتصاعدت الهتافات المدوية من الحاضرين[1].

وكانت المدرسة أداة أساسية في عملية التغلغل الثقافي، حاولت السلطات الإيطالية استغلالها إلى أبعد مدى لتحقيق تلك المهمة، فعملت منذ البداية على محاولة كسب ثقة الطلاب وذويهم مراعية الظروف النفسية المحيطة بهم.

فبالإضافة إلى الحافز المستقبلي الذي يضمن للطلبة عملاً بعد إكمالهم لدراستهم في الوظائف الهامشية المخصصة لليبيين في الإدارة ومختلف الأجهزة الأخرى، عملت السلطات جاهدة على طمأنتهم بأن المدرسة لن تمس معتقداتهم الدينية، بل تحافظ عليها، وتخصص من يقوم بتعليمها لهم، كما تحافظ على لغتهم العربية قراءة وكتابة. وبعد كسب ثقة المواطنين بهذه الطريقة يصبح المجال مهيأ لعملية التغلغل الثقافي المستهدفة عن طريق التلقين، مباشرة أو بصورة غير مباشرة.

وقد شكلت لجنة برئاسة المستشرق «كارلو ناللينو» لإعداد برنامج تعليمي لليبيين المسلمين، انتهت أعمالها بتقديم مجموعة من الدراسات آخذة في الاعتبار إعطاء أهمية خاصة للغة العربية والدين الإسلامي. ونتيجة لذلك، صدر المرسوم الملكي المؤرخ في 17 من

---

(1) العدل 26 مارس 1937.

أكتوبر سنة 1915 بتأسيس ما سمّي بالمدارس العربية الإيطالية لتدريس اللغة العربية والدين الإسلامي إضافة إلى العلوم الاجتماعية والطبيعية التي كانت تدرس باللغة الإيطالية، على أن تستمر الكتاتيب والزوايا والمدارس الدينية في تأدية رسالتها بالصورة المعهودة، ولو أن النية كانت متجهة إلى إعادة تنظيم الكتاتيب أسوة بالمدارس وفتحها أمام الراغبين من الطلاب بين السابعة والرابعة عشر[1].

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ووصول الفاشيست إلى السلطة دخلت العلاقات الليبية الإيطالية مرحلة جديدة، صمم الفاشيست فيها على إنهاء المقاومة الليبية في أسرع وقت ممكن، وبمختلف الوسائل المتاحة. إلا أن تلك القضية لم تكن بالبساطة التي ربما كان يتصورونها. إذ اشتدت ضراوة الحرب فخرجت عن طبيعتها المتعارف عليها، لتدخل على أيدي زعماء الفاشيست السياسيين، وقادتهم العسكريين إلى مرحلة الإرهاب الذي لم يقتصر على المحاربين في الميدان، بل اشتدت وطأته على المدنيين بصورة منقطعة النظير، واتخذ مختلف المظاهر من إبادة جماعية، إلى معسكرات اعتقال، إلى محاكم طائرة، ومحاكمات صورية، وأحكام قاسية، عدا إبادة الحيوانات وإتلاف المزروعات وما إلى ذلك[2].

وفي تلك المرحلة، وفي المرحلة التي تلتها أي بعد استشهاد عمر المختار، وفي خضم النقمة عليهم في الداخل والخارج ـ وخاصة في العالم الإسلامي ـ أظهر الفاشيست اهتماماً خاصاً بالدين الإسلامي، محاولين بذلك ـ أسوة بالنظام الليبرالي السابق لهم ـ طمأنة المواطنين بأنهم يحترمون الدين الإسلامي، والحضارة الإسلامية، والتقاليد

(1) Rodolfo Micacchi, L'Eniseignement aux indegenes dans les colonies Italiennes, dependent directement de la Courane, Broxelles 1931, p. 480.

(2) هذه قضايا أصبحت في حكم البديهيات، أنظر ما كتبه عنها رودولفو غراسياني نفسه في كتابيه: (1) Verso il Fezzan, Bengazi: Fratelli Pavone: 1934, (2) Cirenaica Pacificata, Milano: Editore Mondadore 1932.

والعادات المحلية. وفي نفس الوقت كانت أجهزتهم الدعائية في الخارج تعزف نفس النغم وخاصة في مصر وسوريا ـ حيث يقيم العدد الأكبر من المهاجرين الليبيين الذين كانت لهم نشاطات سياسية ملحوظة ـ محاولة استمالة عدد من الزعامات والشخصيات الإسلامية البارزة[1]. تلك السياسة كان لها تأثير كبير على البرامج التعليمية الفاشيستية في البلاد.

كان الفاشيست يرون في المدارس وسيلة أساسية للتغلغل في الأوساط الشعبية بين العائلات والقبائل والترويج لسياستهم في أعماق المجتمع. كما عبر عن ذلك مجموعة من السياسيين وكذلك بعض المسؤولين على اقتراح وتنفيذ السياسة التعليمية في البلاد. ففي خطاب أحد أعضاء البرلمان نجد الآراء التالية: «ونحن نتوسع ونهدىء يجب علينا أن نبني. فليست سياستنا إبدال الإيطاليين الوطنيين إنما هي احتواؤهم ضمن مخططاتنا الاقتصادية... فعن طريق المدارس يجب أن نصل إلى العائلة. وعن طريق التلاميذ يجب أن نتوغل في القبائل.. مدارسنا في المستعمرة يجب أن تكون إرساليات حضارية[2]». وكتب فيستا في سنة 1930 في كتابه: المدرسة الإيطالية، ما يلي: «في المستعمرات نحن نعيش عالماً يختلف عن ذلك الذي في إيطاليا نفسها. ومن ثم فإنه من غير الطبيعي تطبيق وصفتنا التقليدية، أن أغلبية السكان مسلمون مرتبطون بفضائل تقليدية وخلفهم قرون من التاريخ. وبدون شك فإن مؤسساتهم تحتفظ بكثير من الأمور البدائية،

---

(1) كانت القنصليات الإيطالية في مصر وسوريا تمارس نشاطاً سياسياً ملحوظاً وكان لها عملاؤها من مواطنين محليين ومواطنين ليبيين، كما كان لها اتصالاتها بالزعامات المحلية، أنظر على سبيل المثال في جريدة الرقيب العتيد 4 من فبراير 1937 الدعاية والدعاية المضادة في المقال المنشور بعنوان: «أراجيف باطلة يذيعها سماسرة الوطنية في الخارج».

(2) A.J. Steel Greigh, History of Education in Tripolitania (Tripoli: The government Press. 1948). p. 18.

ولكنها أمور جيدة. فليس بالإمكان تحطيم وتدمير كل تلك بضربة واحدة دون إلحاق الضرر. ومن ثم فإن ذلك (التحول) يجب أن يتم بالتدريج. يجب أن يوفر للمواطن الأدوات لتطوير نشاطاته ـ ولكن في ذات الوقت يجب أن نوضح له وجهة نظرنا وأن نخلق فيه الانطباع بأننا لن نأخذ أي شيء من ماضيه»[1]. وكتب تورتونيس في سنة 1936 في كتابه: «المؤسسات المدرسية» ما يأتي: «أما المدارس [الخاصة بالعرب] فهي من نوع خاص، إنها لا تهدف إلى استبعاد الطفل العربي من سيكولوجيته الخاصة أو من تقاليده أو من معتقداته، بل إنها تعمل [على حمله] على الثقة بنفسه بشكل أقوى وأن يصل إلى مستوى من الأداء، وإلى فهم قاطع للخطة الإنسانية التي تحاول إيطاليا تنميتها في أفريقيا. طلب المواطن التعليم، فوفرته الحكومة: حيث انتشرت المباني في الدواخل وأرسل المعلمون إلى البقاع المنعزلة (النائية) ـ إنهم رسل للحضارة ـ[2].

ومن ثم تتضح السياسة التعليمية للحكومة الفاشيستية التي كانت تعير المدرسة أهمية خاصة في عملية التغلغل الثقافي في البلاد. كانت تعمل على أن يكون للمدرسة وقعها الخاص على نفسية المواطنين فاهتمت بالمبنى المدرسي الذي تميّز ببروزه فأصبح أحد المعالم الرئيسية للمنطقة المتواجد فيها والذي يتباين في تصميمه وهندسته وعمارته وبنائه مع المباني البدائية البسيطة التي كانت تؤوى المواطنين. واهتمت بتأثيثه بأحسن الأثاث، وبتزويده بأحدث المعدات والأدوات والوسائل. وعممته خلال بضع سنوات في جميع أرجاء البلاد[3].

أما من حيث المناهج فقد تم إعدادها في ضوء السياسة التعليمية التي رأينا جانباً منها، والتي تتمثل في استمالة المواطنين أولاً بطمأنتهم

---

(1) Ibif, p. 24.

(2) Ibid. p. 24-25.

(3) Fulvio Contini, «Cenni Sulle Scuole» Anno I n 3 (Tripoli: 1953) pp. 59-61.

عن الجانب الديني اللغوي ثم التغلغل من خلال الجوانب الثقافية الأخرى. وهنا يجدر التنبيه إلى الاهتمام الخاص الذي أولاه الفاشيست للتعليم لما كانوا يعلقون عليه من آمال حيث كانوا يتابعون نتائجه بشيء من القلق والتوتر. فكانوا يصدرون المراسيم، والمراسيم المعدّلة، والقرارات الوزارية التنظيمية في فترات متلاحقة دون مراعاة العامل الزمني الضروري لتقييم تلك التجارب. ولذلك فتجنباً لخوض تفصيلات يضيق عنها مجالنا. نكتفي فقط بذكر الأسس التي قامت عليها العملية التعليمية، لقد استبعدت الكتاتيب من التعليم العام لطبيعتها المحضة وعيّن لها مفتش يتبع إدارة المعارف وخصص لبعضها دهعم مالي خاص. وتم التركيز على المدرسة الابتدائية كنواة للتعليم والتوجيه، وكانت تنقسم إلى قسمين أولي مدته ثلاث سنوات وعلوي ومدته سنتان. وكانت تدرس فيها اللغة العربية والدين الإسلامي بالإضافة إلى اللغة الإيطالية والمواد الاجتماعية والعلوم الطبيعية. وكانت كلها تدرّس باللغة الإيطالية[1].

ولا شك كانت المدارس فرصة للتعريف بإيطاليا وجغرافيتها وزعامتها وسياستها ـ وكانت حتى كتب المطالعة العربية لا تخلو من صور الملك والملكة والوالي الإيطالي وبعض معالم العاصمة الإيطالية ونبذ تعريفية عنها. والموضوعات التي تتعرض لإيطاليا قليلة ومختارة ومعروضة بين الموضوعات بشكل عادي لا يبدو عليه أي مجال للتركيز ولفت النظر، فمثلاً بين الموضوعات الكثيرة في كتاب المطالعة للصف الثاني الابتدائي التي تتناول الأمور ذات العلاقة بالبيئة والأعياد الإسلامية والحياة اليومية المحلية، هناك موضوعان: أحدهما بعنوان العلم ـ بفتح العين واللام ـ وعليه صورة العلم ونصه كالآتي[2].

---

(1) Ibid, p. 47.

(2) الشيخ محمد كامل الهمالي واندلكاتوبلد الساري، **إلى الحياة**، (كتاب القراءة للصف الثاني الابتدائي) طرابلس: مطبعة بلينوماجي 1938، ص 116.

«الأطفال يخرجون من المدرسة مارّين أمام العلم، ومع الله يحيونه بالتحية الرومانية. أتعرف معنى هذا الاحترام؟... إن هذا العلم المحبوب ذا الألوان الثلاثة يناجي قلوبنا، فيقول: أنا جلالة الملك، أنا دولة الوزير بنيتو موسوليني رئيس الحكومة وزعيم الفاشو، أنا حكومة إيطاليا كلها التي من ضمنها قطر ليبيا وسائر مستعمراتها، أنا أسطول إيطاليا وجيشها المنصور...

«حيِّ يا ولدي هذا العلم المرفرف واشكره من صميم قلبك لأنه يمهد لك سبيل الراحة والعمران وكثرة الخيرات وهو الذي يصيرك رجلاً قوي البنية مهذباً فعالاً مفيداً لنفسك ولغيرك».

ومقال آخر بعنوان: «الأراضي الإيطالية»، نصه كالآتي[1]:

«ليبيا تبعد قليلاً عن إيطاليا. الإيطاليون قبل احتلال ليبيا، يحكمون بلداناً بعيدة تدعى أريتريا وصوماليا وهم الآن يملكون حتى الحبشة. ويقيم بها نائب الملك.

«سكان ليبيا وأريتريا وصوماليا والحبشة يشكرون الله المنعم الكريم على الخيرات العميمة التي أفاضها عليهم وتفيضها الآن حكومتهم إيطاليا.

وللتوجيه العقائدي الفاشيستي أهمية قصوى في السياسة التعليمية الفاشيستية ولم يكن مقتصراً على التلاميذ العرب في المدارس العربية الابتدائية فحسب بل كان الاهتمام موجهاً بصورة خاصة إلى المدارس الإيطالية، وخاصة في المرحلة الثانوية والتي كانت مفتوحة للراغبين والقادرين من الطلبة العرب أسوة بالإيطاليين، وبالفعل تمكن عدد قليل من دخولها[2]. ويصفها أحد الباحثين بقوله: «كتبها المقررة مليئة

(1) نفس المرجع ص 49.

(2) Contini, op, cit.. p, 56.

أنظر: الإحصائيات الخاصة بالطلبة الذين التحقوا بالمدارس المتوسطة.

بالنظريات الفاشيستية، فيها صور الرجال والأطفال ذوي القمصان السود، ومعلومات عن أبطال الفاشيست، ومقتطفات من خطابات موسوليني - إنها - أي الكتب - فاشيستية من الغلاف إلى الغلاف. الحساب كان يعلّم بإضافة أو طرح رقم أحد أفراد «الباليلا» من آخر. تمرينات القواعد كانت تعلم على طريقة أضف صفات إلى الدوتشي، الفاشية، إيطاليا... الخ... والجغرافيا كانت تعلم جغرافية إيطاليا ومستعمراتها مع اهتمام خاص بألمانيا النازية وأسبانيا الفاشية... وكتب التاريخ كانت تركز على عظمة إيطاليا والفاشية. ولا يذكر تاريخ البلاد الأخرى إلا عند الضرورة وبالقدر القليل»[1].

على أن إنشاء المدرسة الإسلامية اعتبر من أهم إنجازات تلك الفترة، واستمر لمدة غير قصيرة مادة للدعاية الفاشيستية في الداخل والخارج. وقد اقترحت انشاءها اللجنة المذكورة أعلاه سنة 1915 ولكنها لم تخرج إلى حيز الوجود إلا في عهد حاكم ليبيا آنذاك، ركن الزعامة الفاشيستية، ايتالو بالبو حيث صدر المرسوم الملكي بإنشائها في 13 من مايو سنة 1935 وافتتحت في يناير سنة 1936[2].

وكان الهدف منها تخريج علماء في الدين الإسلامي وأساتذة في اللغة العربية وآدابها. ومتخصصين في شتى المعارف الإسلامية، وكانت مجهزة بوسائل وتسهيلات تمكنها من تدريب بعض الطلاب لتولي وظائف في الإدارة الحكومية، إضافة إلى تحقيق هدف سياسي لم يحفظ سراً - حتى في ذلك الوقت - وهو صرف الطلاب عن الذهاب إلى مصر لاستكمال دراستهم في الأزهر، حيث إمكانية اتصالهم بالحركات السياسية المعارضة فيها. وكانت مقسمة إلى ثلاث مراحل: إعدادي ومدته ثلاث سنوات، وأوسط ومدته أربع سنوات، وعال ومدته ثلاث سنوات. والأوسط ينقسم إلى فرعين أحدهما لإعداد

(1) Steel Greigh, op, cit, p. 22.

(2) Bol, Trip, XIII, n 38 (10 Ottobre 1935), p. 137.

المعلمين والآخر لإعداد الموظفين. وكانت تدرس فيها المواد الدينية من فقه وتجويد وتفسير وتوحيد وحديث، والمواد الاجتماعية من تاريخ وجغرافيا، والمواد الرياضية من حساب وهندسة، ومسك الدفاتر، بالإضافة إلى اللغة الإيطالية، وبعض المواد الأخرى: كالمنطق وأصول المرافعات القضائية، وكانت اللغة العربية لغة التدريس فيها. واختير شيخاً لها مفتي ليبيا في ذلك الوقت[1].

وقدر لعدد من مديريها وأساتذتها وتلاميذها تقلد وظائف قيادية سياسية ودبلوماسية في مرحلة لاحقة. ولم تتمكن هذه المدرسة من تحقيق رسالتها، حيث أغلقت أبوابها أثناء الحرب وتوقفت نهائياً بانتهاء الحكم الإيطالي[2].

وهكذا فبجانب التعليم الفاشيستي الموجه، كانت هناك المؤسسات التعليمية الدينية من كتاتيب وزوايا والتي استمرت في آداء رسالتها التقليدية، وتخرّج منها العديد من الطلاب، منهم من واصل دراسته في الخارج، في الجامع الأزهر وفي جامع الزيتونة، ومنهم من اكتفى بها، وكانت مراكز فكرية أدبية تخرج منها نخبة من القضاة والفقهاء والأدباء والشعراء ممن ساهموا فيما بعد في النهضة العلمية في البلاد، ومنهم من عمل في المجال السياسي، وكانت أيضاً المدرسة الإسلامية التي أنشئت من أجل تحقيق الأهداف التي ذكرناها في حينها والتي منها أهداف عملية اقتضتها ظروف الحاجة في البلاد وأخرى سياسية يمكن فهمها في إطار السياسة العامة للحكومة الفاشيستية في ذلك الوقت.

وخارج النظام التعليمي الرسمي استحدث تنظيم جديد تحت إشراف الحزب الفاشيستي انتظم فيه طلاب المدارس وبعض طلاب

---

(1) Bol. Trip. XXIII, n 8 (21 Marzo 1936), p. 428.

(2) خالد الثابت، **المدرسة الاسلامية العليا**، مقابلة أجراها عمرو بغني، **الشهيد** ع 4 - 1983، معلومات تفصيلية هامة عن وضع المدرسة المذكورة.

الكتاتيب ومجموعات من الشباب، هذا تنظيم هو ما عرف بتنظيم شبيبة الليتوريو العربية، وهو على غرار شبيبة الليتوريو الإيطالية (Gil) والتي هي اختصار لعبارة (Gioventù Italiana del Littoroi) وهي المؤسسة التي انشئت في روما بموجب مرسوم يناير سنة 1929 وهدفها تقديم المساعدات الروحية والفيزيقية لأبناء الإيطاليين الذين يعيشون في الخارج، وكانت تستقدم أعداداً كبيرة منهم كل عام إلى إيطاليا لزيارة مختلف المعالم الطبيعية هناك. وكان يلتحق بها الأطفال والشباب بين سن السادسة والواحدة والعشرين. ونشاطات منظمة الليتوريو هذه تشمل التدريب ما قبل العسكري، أي مرحلة الإعداد المعنوي والبدني ودورات رياضية بدنية تثقيفية موجهة بالإضافة إلى معسكرات صيفية وزيارات ميدانية للمؤسسات ورحلات برية وبحرية. وكان الشعار المرفوع عندئذ أن المدرسة تهتم بعقلية الطفل في حين أن مؤسسة اللتوريو تهتم بجسمه ليقاتل من أجل الفاشية[1].

وبعد ضم ليبيا لتصبح شاطئاً رابعاً لإيطاليا بدأ بالتدريج إنشاء بعض المؤسسات المشابهة لتلك التي في إيطاليا ومن بينها مؤسسة شباب الليتوريو العربي الـG.A.L اختصاراً لعبارة (Gioventù Araba del Littorio)، والتي استقطبت بالإضافة إلى طلبة المدارس الابتدائية بعض طلبة الكتاتيب وبعض الأطفال الآخرين حيث كانوا يتلقون تدريبهم أثناء العطلات. وكانت تنقسم إلى قسمين أطفال تتراوح أعمارهم بين 9 ـ 12 سنة وشبان وتتراوح أعمارهم بين 12 ـ 17 سنة. ويشمل برنامج العمل التدريبات الرياضية والعسكرية وضروب من التسلية والتجول في أنحاء البلاد لزيارة المعاهد المختلفة والمناطق الزراعية والاطلاع على المشاريع الاقتصادية. وقد ظهرت فرقها في الاستعراض العام الذي أقيم يوم 28 من أكتوبر 1935 ضمن

(1) Dizionario Enciclopedico Moderno vol. Terzo, p.297.
وانظر بعض التفاصيل في كتاب: Steel Greigh, op. cit., p. 23.

الاحتفالات بالزحف الفاشيستي على روما[1].

وكانت تعرف في الأوساط الشعبية باسم «الباليلا» Balilla وهو الاصطلاح الذي أطلق على الفتيات من سن 8 إلى 13 في الليتوريو الإيطالية، تيمناً بالطفل الجنوي الذي تصوره الأسطورة بإلقاء الحجر على أحد جنود الجيش النمساوي المحتل إيذاناً بالثورة ضد النمسا في سنة 1746. فتخليداً لذلك الطفل الذي أقيم له تمثال في مدينة جنوة صدر مرسوم ستة 1926 بتشكيل شباب الباليلا في إيطاليا[2]. وكان يشرف على الجزء العربي منها أحد الأشخاص البارزين ذوي المكانة الاجتماعية في تلك الفترة. وأما مركزها الرئيسي فكان في طرابلس، وافتتحت لها فروعاً أخرى في مختلف المراكز الرئيسة في البلاد، وكانت تستهوي الأطفال بزيها الموحد الذي كان يرتديه منتسبوها، وبتدريباتها وبنشاطاتها التي كان يقودها مدرسون مؤهلون ومدربون خصيصاً للقيام بتلك المهمات.

وبلغ عدد المنتسبين إليها في سنة 1936 حوالي 16 ألف شاب وهو رقم كبير قياساً إلى عدد السكان في تلك الفترة، من بينهم 3 ثلاثة آلاف في مدينة طرابلس وحدها. وأوفد في نفس العام 1500 شاب في زيارة إلى إيطاليا ضمن برنامج الجمعية[3]. ويعتبر ذلك حدثاً كبيراً في زمن كانت الاتصالات بالعالم الخارجي محدودة للغاية. وبذلك كان مجالاً لمقالات في الصحف والمجلات التي تصدر في تلك الفترة[4]. وقد نظم أحد الشعراء قصيدة بالمناسبة، نقتصر هنا على إثبات الأبيات منها:

---

(1) ليبيا المصورة، 1 ـ 4(يناير 1935) ص 4.

(2) Dizionario Enxciclopedico Moderno vol, primo pp 449-450.

(3) Steel Greigh, op. cit., p. 27.
وأنظر أيضاً: ليبيا المصورة 1، 2 (نوفمبر 1935) الصفحتين 4، 5.

(4) ليبيا المصورة 1 ـ 1(أكتوبر 1935) ص 6.
وليبيا المصورة 1 ـ 2 (نوفمبر 1935) الصفحتين 4، 5.

يا شباب العرب هيا نحو روما والزعيم
تبصروا مجداً فتياً وتروا خيراً عميم
يا شباب العصر سيروا نحو هاتيك المغاني
في جناح اليمن طيروا واطلبوا المجد القويم

وقد أعار دستور الإيطاليين المسلمين الخاص بالليبيين أهمية خاصة لنشاطات الليتوريو، فبالإضافة إلى بلوغ سن (18) ثمانية عشر وعدم صدور الحكم بحبس الحرية فإن الليبي بإمكانه الحصول على الجنسية الخاصة إذا توفر له شرط ثالث بين مجموعة من الاختيارات، من بينها الاشتراك في شباب الليتوريو العربي لمدة سنة على الأقل - مادة 5 - فقرة ن -.

كما اعتمد نفس الدستور تكوين الجمعية المذكورة تحت الحزب الفاشيستي مباشرة لتكون هيئة من هيئاته[1].

أما إلى مدى وفقت هذه المؤسسة في آداء مهمتها فهي مسألة يصعب تقديرها، لأن الفترة التي استغرقتها كانت قصيرة، إذ سرعان ما توقفت المدارس وتوقفت نتيجة لذلك جميع النشاطات المتصلة بها، بسبب نشوب الحرب. فكل ما يمكن أن يقال عنها أنها محاولة للتغلغل الثقافي الفاشيستي في أوساط الجبل الجديد.

وكان لوسائل الاعلام أهمية خاصة في عملية التغلغل الثقافي في البلاد على الرغم من محدودية انتشارها من جهة وضآلة حجم الفئة الشعبية التي يمكن مخاطبتها مباشرة من خلالها. وأهميتها تكمن في مخاطبتها الفئة المتعلمة وهي فئة صغيرة - كما قلنا - إلا أنها عظيمة الأهمية، لأنها الطبقة الواعية والمؤثرة فهي ليست هدفاً في حد ذاتها فحسب، بل هي أيضاً وسيلة لمخاطبة الأغلبية الساحقة.

وكانت وسائل الأعلام في ذلك الوقت متمثلة في الجرائد

(1) ليبيا المصورة 4، 2 (نوفمبر 1938) الصفحتين 2، 4.

حكومتهم، ودولتها دولتهم، كما تتولى من آن لآخر الرد على مختلف التصريحات التي تصدر عن الحركات السياسية الليبية التي كان يقوم بها الليبيون في المهجر، وخاصة تلك التي كانت في بلاد الشام. كل ذلك بالإضافة إلى الأخبار الاجتماعية المحلية والتي كانت بطبيعة الحال مقتصرة على الفئة البارزة في المجتمع في ذلك الوقت. وسنورد هنا نماذج مختصرة، ومعبرة عن اتجاه الجرائد في تلك الفترة، والتي نوردها كما هي بركاكة أسلوب بعضها وبأخطائه اللغوية[1].

جاء في الرقيب العتيد بمناسبة التهنئة بانتهاء رأس سنة 1922:

«ومن جملة المهنئين لدولة الوالي برأس السنة والعام الجديد أعضاء اللجنة التي قامت بتقديم شعائر الامتنان لدولة الوالي وتهنئته بتوليته عضواً بمجلس الأعيان الإيطالي بجعلهم مضبطة مختومة من عموم أهالي طرابلس، بالاشتراك فيها من مسلمين ونصارى وإسرائيليين، وقد جعلت هذه المضبطة في كتاب ضخم وفي صفحاته امضاءات الأهالي الذين أمضوها فرحين منشرحين لما علموا في شخص الوالي من الميل إلى الراحة وجلب الخير للبلاد وللعباد وفي طليعة الكتاب قصيدة... لعضو بمحكمة الاستئناف العليا الشرعية (والتي نورد منها البيتين التاليين:

رسخت «فولبي» في البلاد سياسة لا تستطيع إلى سواه رجوعا

أحيا بخطته وحسن سلوكه وطناً كما أحيا الغمام ربوعا»

الهيئة المذكورة مكونة من مجموعة الأعيان ومن صاحب جريدة العدل وصاحب جريدة الرقيب العتيد.

ونشرت جريدة العدل في فبراير سنة 1923 مقالاً بعنوان: «حالة الدعات (هكذا) والسماسرة بعد الاستيلاء على ترهونة وامسلاتة، جاء فيه[2].

(1) الرقيب العتيد 5 يناير 1938.

(2) العدل: 27 فبراير 1923.

«... فلقد سمعناهم يعلنون عندما استولى الكولونيل غرسياني على غريان أنه فاجأهم بالهجوم قبل أن يستعدوا... بينما يقوم رفقاؤهم الدعات (هكذا) بهذه المهمة من جهة امسلاتة ثم رأيناهم وقد طاردت عساكر الكولونيل «بيلي» العصابات في أراضي الختنة يكررون... بدون حياء أن تقدم المذكور وقتي تغريراً لبسطاء العقول وتسلية لأنفسهم وأنهم على وشك الانتصار إلى آخر خرافاتهم في وقت كانت جماعات الدعات تشكو هول قنابل الطوبجية بقيادة الكولونيل بيلي ورصاص رجالهم الشجعان... فهاج العصاة وعلا فيهم صراخ اليأس وفرّ كثير، منهم الصويعي الخيتوني وفرحات الزاوي، وبدأ بعض رؤساء الدعات يفسرون لمن بقي معهم مصيبتهم وانهزامهم الجديد بعد اتحادهم معلنين لسخفاء العقول أن المستقبل سيحقق ضالتهم المنشودة وغايتهم المقصودة».

ونشرت في سبتمبر قرار مصادرة أملاك مجموعة من المجاهدين هم: أحمد المريض، ومحمد المريض، ومبروك المنتصر، وخالد القرقني، والحاج الصادق بن الحاج القيزاني ومختار كعبار، وراسم كعبار، ومحمد الصويعي الخيتوني، وفرحات الزاوي، وأحمد الشتيوي[1].

ونشرت الرقيب العتيد في إبريل 1934 نقلاً عن جريدة مستقبل طرابلس (L'Avvenire di Tripoli) التي تصدر بالإيطالية رداً على جريدة البلاغ المصرية التي كتبت مقالاً تدين سياسة الهجرة الإيطالية مقارنة إياها بالسياسة الاستيطانية الصهيونية في فلسطين. وكان الرد يشابه الردود الدعائية التي كانت تصدر عن الصهاينة[2]:

«... على أن من كان واقفاً على الحقيقة وله إلمام بأعمال إيطاليا في هذه الديار لا يعترضه شك في أن المعمرين الإيطاليين، قد حولوا

(1) العدل 3 من سبتمبر 1923.

(2) الرقيب العتيد 20 من أبريل 1934.

الصحاري إلى روضة غناء بكل معنى الكلمة. فقد أصبحت الأراضي المزروعة خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل...».

ونشرت جريدة العدل افتتاحية بمناسبة زيارة موسوليني في مارس سنة 1937[1] جاء فيها:

«... وما العيد حقاً إلا يوم تطأ قدم حبيب الإسلام، ونصير الإنسانية صاحب الفخامة بنيتو موسوليني أرض طرابلس، ويرى مسلموها طليعة محياه البهية...

«إن هذا القطر بما فيه من ناطق وصامت وماله من أرض وسماء ليفتخر بتشريف وحيد إيطاليا وزعيمها ومنشىء الامبراطورية وحامي السلام... فليشهد العالم وليسجل التاريخ أن أهالي طرابلس الغرب اليوم مبتهجون من أعماق القلوب بتنازلكم لهذه الزيارة الميمونة التي وعدتم بها والتي تعدونها أعظم مكافأة لهم على إخلاصهم وتعلقهم بعرش صاحب الجلالة الملك الامبراطور المقدس وآل صافويا العظام والفاشيزم، الذي ألقى على الشعوب درساً جديداً في الحياة والسعادة والقوة والسلام، حكمتم الشعب العربي فعدلتم، وساعدتم العروبة فنجحتم، وحاربتم الأعداء فانتصرتم، لله درّك من قائد محنك، وزعيم سابق، جعلك الله ذخراً لليبيا وأهلها حتى تأخذ بأيديهم إلى أسمى درجات الكمال والله نسأل أن يكلل أعمالكم بالنجاح».

أما الحقيقة ـ فكما قلنا ـ كانت تصدر عن دار العدل باللغة الدارجة ويبدو أن الهدف من صدورها هو الوصول إلى الأغلبية الساحقة التي لا تفهم اللغة العربية الفصحى في ذلك الوقت، حيث أن ظروف الناس تختلف عما هي عليه الآن إذ كانت اللغة حبيسة محيطها الاجتماعي المحدود، فهي عامية موغلة في عاميتها، ومفرداتها ليبية محدودة، فلم تكن بالمستوى التي عليه الآن بعد أن

(1) العدل 16 من مارس 1937.

تهذبت واغتنت عن طريق انتشار الثقافة، بانتشار التعليم، وشيوع استعمال الإذاعة المسموعة ثم المرئية، وعن طريق الأغاني والأناشيد والتمثيليات والمسرحيات والمسلسلات وما إلى ذلك... فالجريدة كانت موجهة لتخاطب الناس على قدر حصيلتهم اللغوية. والقليل منهم من يقرأها بنفسه، أما الأغلبية فكانت تقرأ عليهم في المجالس وفي الدكاكين وفي المقاهي الخ... و«الحقيقة» هي التي بشرت زبائنها في أكتوبر سنة 1939 بقرب انشاء «راديو بالعامية وأذان من الراديو»[1]، ولنقرأ نموذجاً من كتاباتها، فتحت عنوان: «البلادات الزراعية الجديدة»، كتبت ما يأتي[2].

«كنا قبل كتبنا على البلادات الزراعية اللي الحكومة تبي تعملهم حسب أمر الدوتشي وبشرنا بيهم. وتوا حكومة ليبيا حضرت هاالمشروع باش ترفعه لفخامة الدوتشي باش يصدق عليه والبلادات همة سنة واحدة في قصر بينيتو فيها 25 مزرعة بجياشهم والثانية في جنزور فيها 75 والثالثة في قصر القربوللي فيها 40 والرابعة في المعمورة في جنب المعمورة الأولى فيها 100 والخامسة في العجيلات فيها 40 والسادسة في القوارشة وفيها 45. وهادا كله تدير فيه الحكومة باش ترفع مستوى المسلمين الاقتصادي والاجتماعي».

ولا يمكننا ونحن بمعرض الحديث عن الصحافة إغفال ذكر مجلة هامة كان لها دور كبير في الحياة الثقافية في البلاد، ألا وهي مجلة ليبيا المصورة والتي كان يترأس تحريرها عمر فخري المحيشي. وهي مجلة شهرية صدر العدد الأول منها في أول أكتوبر سنة 1935، وتمتاز بجودة طباعتها، وجمال إخراجها، وقوة أسلوبها، وتنوّع موضوعاتها. وكانت، بدون شك، مجلة النخبة المثقفة في ذلك الوقت على تعدد خلفياتها الثقافية، وتباين اتجاهاتها الفكرية،

(1) الحقيقة 24 من اكتوبر 1939.

(2) الحقيقة 16 من فبراير 1940.

واختلاف اهتماماتها العلمية[1].

وكان في صدارة موضوعاتها ـ وذلك كان أمراً طبيعياً ـ الكتابات الدعائية التي كانت تتولاها هيئة تحرير المجلة ويمكن تصنيفها تحت ثلاث موضوعات رئيسية: دعايات اخبارية وتورد أهم أحداث الإدارة المحلية في ليبيا التي تمت خلال الشهر. كتابات دعائية عن أعمال إيطاليا في ليبيا وتتناول بالتحليل السياسة الإيطالية، وتركز على العهد الفاشيستي وما تم فيه من انجازات على الصعيد القومي الإيطالي بوجه عام وفي ليبيا بصورة خاصة ـ وبعض هذه المقالات يتناول قطاعاً محدداً كالإسكان والمواصلات والزراعة والصحة والصناعة الخ. . . ويكون في العادة مزوداً بالاحصاءات ويركز على بعض المشاريع التي تعمل خصيصاً ليستفيد منها المواطنون الليبيون. كتابات دعائية ذات طابع ثقافي عن إيطاليا وتتولى التعريف بمختلف المؤسسات الثقافية كأكاديمية العلوم ومراكز الاستشراق ونشاطاتها وخاصة ما تهتم منها بليبيا وبالعامل الإسلامي، كما تقدم الشخصيات العلمية والأدبية في مجال العلوم والآداب والفنون ـ هذا النوع من الكتابات يكون في العادة ذا طالع علمي بعيد عن التهويل والمبالغات التي تتميز بها كتابات النوع الأول.

وبقية الموضوعات ـ كما ذكرنا ـ متعددة متنوعة فيها الدراسات الأدبية التي تتناول الأدب العربي قديمه وحديثه، والدراسات النقدية، والدراسات التاريخية التي تختص بالتاريخ الليبي والتاريخ العربي

---

(1) ليبيا المصورة تعتبر الآن من المجموعات النادرة وتوجد مجموعاتها كاملة لدى بعض الأشخاص في مكتباتهم الخاصة. وتوجد مجموعة غير كاملة ـ تنقصها أعداد قليلة ـ في مكتبة قاريونس تبرع لها بها مشكوراً الحاج عبيدة، الذي لا أذكر اسمه بالكامل مع الأسف، خلال السنة الجامعية 1970 ـ 1971. وفي الخارج توجد في مكتبة الدراسات الإيطالية الأفريقية في روما، وهي أيضاً غير كاملة، وربما توجد في أماكن أخرى.

الإسلامي، والدراسات الأثرية، والتحقيقات اللغوية، وفيها أيضاً القصائد الشعرية بالإضافة إلى الدراسات الاجتماعية التي تتناول البيئة الليبية وتعليم المرأة وكذلك الدراسات الصحية والنشاطات الرياضية[1].

ويمكن القول دون كثير تحفظ بأن ليبيا المصورة تعتبر من أهم المصادر العربية لدراسة الحياة الثقافية والفكرية فضلاً عن أنها مصدر لا يستهان به في دراسة الأحوال الإدارية والسياسية والاجتماعية في ليبيا لتلك الفترة. كما تجدر الإشارة إلى أنها كانت مجلة ليبية محضة استقطبت أقلام الكتاب والأدباء والشعراء من مختلف أنحاء ليبيا فكانت بذلك مجلة مفتوحة أمام الجميع. على أن أهمية المجلة وما ورد فيها من دراسات وأبحاث ذات قيمة يجب ألا تنسينا الجانب الآخر منها وهو الجانب الذي من أجله صدرت هذه المجلة. والذي عبر عنه رئيس تحريرها صراحة في أول افتتاحية قدمها فيها للقراء والذي ننقلها بكاملها لنضعها في اعتبارنا ونحن ندرس موضوع التغلغل الثقافي[2].

«هذه ليبيا المصورة نقدمها بين يدي القارىء في ليبيا والعالم العربي أجمع لغاية واحدة وهي التعريف ببلادنا العزيزة التي تضاربت حولها الأقاويل وأسندت إليها أمور لا ظل لها من الحقيقة.

«جاءت إيطاليا هذه الأرض منذ ربع قرن مدفوعة بعدة عوامل من ضرورات الحياة فكان مجرد إتصال أهلها بالشعب الليبي النشيط المتحفز لتسنّم قمم العظمة تحت ضغط ذكريات المجد التالد ـ كاتصال الموجب بالسالب في الكهرباء ـ نشأت عنه هزة انتباه إلى ماهيّة الحياة ومقتضياتها في هذا العصر وظلت في حركة رقي مطرد رغم ما اعترض ذلك من العوامل المعاكسة.

---

(1) أبواب ليبيا المصورة تكاد تكون ثابتة، إنما التنوع يكون في موضوعاتها، ففي كل عدد موضوعات جديدة، ومعلومات جديدة، انظر على سبيل المثال ـ العدد الممتاز 2 ـ 5 (ليبيا المصورة فبراير ـ مارس 1937).

(2) ليبيا المصورة 1 ـ 1(اكتوبر 1935) ص 1.

«ومن يتتبع بروح الانصاف تاريخ البلاد الليبية في هذه الحقبة الأخيرة يرى أن الحكومة الايطالية كانت في مجموع أعمالها تتوخى خير البلاد وسعادتها ولم تغفل حتى الجانب الأدبي والروحي والذي قد لا يهمها كحكومة استعمارية، فهي لم تكتف باحترام معتقدات الأهالي وتقاليدهم، بل أنشأت كثيراً من المعابد في الأماكن التي عجز الأهالي أنفسهم أو لم يفكروا في إنشائهم بها، وقررت تعليم الدين الاسلامي وحرمت ما يخالفه في مدارسها ولم نسمع قط بما تشكو منه البلاد الأخرى عن الدعايات التي تبث بين المسلمين لحملهم على الانسلاخ عن دينهم بل بلغ بها الحرص في هذا الميدان أن رأينا الحاكم قبل أن يأمر بمنع بعض العادات التي شكا منها الأهالي أنفسهم يدعو علماء الشريعة ليتحقق منهم إن كان هذا المنع لا ينافي أحكام الدين.

«هذه مميزات يجب أن تذكر لايطاليا بين سائر الحكومات المستعمرة وعلى ضوئها يجب أن ينظر لعملها في هذه الديار ليتضح جلياً أن هناك روحاً ترمي للخير فوق كل الاعتبارات الأخرى، روحاً ما برحت تدفع رجال ايطاليا إلى السعي لاشراك هذه الأرض في ما يتمتع به الايطاليون من رقي وفلاح».

وهكذا نلاحظ بين مختلف الموضوعات اليت تناولتها هذه المجلة وكذلك الجرائد الأخرى التي تعرضنا إليها بروز الجانب الدعائي بشكل صريح والذي تدرج من التطبيل المباشر في شكله التقريري الفج، إلى الدعاية المغلفة بالاطار العلمي الاحصائي، إلى إثارة الموضوعات الثقافية الايطالية التي تخدم الجانب الثقافي الانساني ولكن في ذات الوقت لها مردودها الاعلامي الدعائي. ولا يرى الكثير غضاضة في ذلك متحججاً بأن تلك الصحف ومحرريها وكتابها كانوا يؤدون الضروري المطلوب في سبيل التسلل إلى القراء وتقديم مادة مفيدة، فيها غذاء للعقل وإثراء للفكر وحفاظ على التراث. وهو نفس الموقف الذي كان ينطلق منه الايطاليون والذي عبروا عنه صراحة ـ كما أسلفنا ـ بقولهم سيتبعون سبيل التدريج ووسيلة الاقناع وعامل الزمان،

وبذلك سمحوا بالدراسات التاريخية والأدبية والفكرية، المحلية والعربية والاسلامية، إلى جانب الموضوعات الدعائية التي تعرضنا إليها. وفي النهاية ربما كان تقدير الطرفين صحيحاً، إذ تحقق لكل منهما غرضه.

أما الاذاعة فلم يتم إنشاؤها إلا في أواخر سنة 1938، ولم تبدأ أعمالها فعلياً إلا مع بداية السنة التالية. وقد دشنها الوالي بالبو، بحضور رئيس مؤسسة اللاسلكي الايطالي، في مدينة جنزور وكانت بقوة 50 كيلوات وكان البناء الذي يتكون من طابقين، ويضم اجهزتها، يتصل بحجرات بثها في مدينة طرابلس بخطّ كهربائي تحت الأرض[1].

والقسم العربي في برامجها يشتمل على الجانب الدعائي السياسي والذي ازدادت حدّته بازدياد التوتر الذي أدى إلى اندلاع الحرب واقتصر في النهاية على الدعاية المضادة لبريطانيا. وكان لها برامجها الترفيهية العادية. أما برامجها الثقافية فكانت محدودة وكان من بينها دروس ومحاضرات في الثقافة الاسلامية[2].

ويمكن القول بأن الاذاعة كانت ضئيلة الأثر، ذلك لأن أجهزة الاستماع كانت محدودة، ولا توجد إلا في بعض المقاهي، ولدى أشخاص يعدّون على الأصابع. ولم يكن بامكان المواطن العادي اقتناؤها لارتفاع ثمنها، ولأنها كانت كهربائية، والكهرباء في ذلك الوقت لم يكن متوفراً إلا في المدن الكبيرة، وفي حيّز محدود لا يتعدى مدار السوق. وعلى العموم ما أن أعلنت الحرب وبدأت

(1) ليبيا المصورة 4 ـ 2(نوفمبر 1938) ص 15، 16 عن الإذاعة.

(2) ليبيا المصورة 5 ـ 1 (اكتوبر 1939) ص 16 ـ إشارة إلى محاضرات الأستاذ طاهر باكير، المدرس بالمدرسة الاسلامية، في التاريخ الاسلامي والتي أذيعت من الإذاعة المذكورة. أما عن السياسة فكان هناك باب «حديث السياسة» الذي اقتصر على الدعاية ضد بريطانيا وقد علقت في أذهاننا ونحن أطفال الجملة التي كانت تتردد في كل حلقة، «ليخرج الانجليز من حوض البحر الأبيض المتوسط».

العمليات العسكرية حتى توقفت الإذاعة عن البث، كما صدرت الأوامر بسحب الأجهزة من الناس للحيلولة دون متابعة أحداث الحرب ولم ترجع تلك الأجهزة إلى أصحابها إلا بعد الاحتلال الانجليزي[1].

ولم يبق التراث الثقافي بمعزل عن المخططات الاستعمارية الايطالية رغم ما يبدو على مجاله من بعد عن السياسة. ومما يلفت النظر تلك المبالغ المالية الضخمة التي صرفت على الأعمال الاثرية في مختلف أنحاء البلاد والجهود التي بذلت في عمليات الاستكشاف والتنقيب والترميم والدراسات[2].

وتطبيقاً للسياسة الثقافية التي اتبعتها ايطاليا في جميع المجالات والتي رأينا نماذج منها أعلاه لم تقتصر الأعمال الأثرية على التراث الروماني وحده، بل شملت جميع الحقب من عصور ما قبل التاريخ إلى الفترة العثمانية القريبة ـ ولكن التركيز كان بشكل خاص على الفترة الرومانية ـ ومن ثم برزت الآثار الرومانية في إطار الحضارات الانسانية التي تعاقبت على البلاد في شكل متكامل ظاهر معبر كما تبدو جلية في مدن متكاملة بداراتها ومعابدها ومؤسساتها وكنائسها وحماماتها ومسارحها وملاهيها وأسواقها ومقابرها، ولعل مدينة لبدة أصدق نموذج لتلك المحاولة. وأنشئت المتاحف الجديدة في إطار تلك السياسة الثقافية، فكانت تعكس إهتمامات خاصة بالتراث الثقافي والطبيعي في البلاد. فالجانب الأول يتمثل في اللقيّ الأثرية المعروضة من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور اللاحقة. أما الجانب الآخر فيتمثل فيما ضمه متحف التاريخ الطبيعي من مواد جيولوجية مجمعة من مختلف أنحاء

---

(1) أخبرني أحد أصدقاء الوالد الذي لجأ إلى الزاوية أثناء الغارات بأنه لم يُسلِّم جهازه واستطاع أن يتابع الأخبار مع باقي الأصدقاء حيث هرب إلى بيت القاضي في صندوق شاي.

(2) يمكن الرجوع إلى ملفات الآثار في تلك الفترة وإلى المطبوعات المودعة في مكتبات الآثار وخاصة تلك التي في طرابلس وشحات للحصول على مزيد من التفاصيل.

البلاد، ومن نماذج حيوانية محنطة لأصناف الحيوانات التي تعيش فيها[1]، كما أنشىء قسم للعاديات الذي يمثل الحياة الاجتماعية. ولكن بين هذه وتلك يبرز القسم الكلاسيكي، والروماني بالذات، الذي يلفت النظر بكثرة مقتنياته، ونفاستها وجودتها وتكاملها[2].

وهكذا فلم يكن مجرد محض صدفة التركيز على الجانب الروماني سواء في العمل الاثري أو في العرض المتحفي، بل كان سياسة مدروسة مخططة لتجذير العملية الاستعمارية الايطالية تاريخياً بطريقة علمية. وكان الهدف إشعار الايطالي بأنه ليس غريباً في هذه البلاد بل له ماض فيها عريق وربما إشعار الليبي بالمقابل وفي ذات الوقت بأن الانتماء بالمواطنة فيها لم يكن وقفاً عليه وحده. أما إلى أي مدى كانت أهمية هذا الجانب فهي مسألة يصعب تقديرها ذلك أن التراث الثقافي يخاطب الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية بلغة بسيطة مباشرة ويستجيبون له بالقدر الذي تمكنهم به تلك المستويات. فإذا أخذنا في الاعتبار أن معظم المترددين على تلك الأماكن في تلك الفترة كانوا من طلبة المدارس ومن شباب الليتوريو وأنهم كانوا يزورونها في رحلات علمية تثقيفية وتقدم لهم بأسلوب علمي محدد لأدركنا بأن ذلك الجانب لم يكن على المدى البعيد هامشياً.

إن تلك المواقع الأثرية واللقيات المتحفية تمثل اليوم جزءاً من الثروات الثقافية لهذه البلاد، تتولى صيانتها والحفاظ عليها، واستكمال دراستها، واثراءها، فهي تمثل حقبة هامة في تاريخها، وقد بذل المسؤولون على التراث الثقافي جهوداً كبيرة للقيام بأعمال أثرية موازية على حقب ذات علاقة مباشرة بتراثنا، في الحضارات الليبية

---

(1) متحف التاريخ الطبيعي كان مزوداً بمكتبة خاصة كما كان يصدر مجلة متخصصة وقد أصدر الأستاذ عياد العوامي أمينه السابق مجموعة من الدراسات المبسطة باللغة العربية من بينها دليل نشرته المنشأة العامة للنشر في سنة 1976.

(2) أنظر ما كتبه عنه محمود أبو حامد وعبد العزيز النمس في دليل متحف طرابلس نشر الدار العربية للكتاب سنة 1977 خاصة ما ورد في المقدمة.

القديمة وفي الحقبة الاسلامية، في محاولة لايجاد نوع من التوازن بين مختلف فترات تاريخنا. وقد قطعت خطوات كبيرة في هذا السبيل. وفي المجال المتحفي تمثل ذلك الاتجاه الجديد في انشاء مجموعة من المتاحف المتخصصة في مواقع متعددة لحقب تاريخية مختلفة. ولعل المتحف الجماهيري الذي يستهدف تقديم خطة التحول في إطارها التاريخي، والذي يعد بالتعاون مع المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو)، سيكون النموذج المتكامل الذي يجسد ذلك الاتجاه[1].

وخلاصة القول إن الايطاليين أولوا التراث الثقافي إهتماماً خاصاً ورصدوا الاعتمادات المالية وحشدوا الخبرات العلمية والفنية وجندوا القوى البشرية لاظهار الفترة الكلاسيكية على حساب الفترات الاخرى، وحققوا بذلك نتائج منقطعة النظير لدرجة أن الجهود ما زالت تبذل إلى الآن لايجاد نوع من التوازن بين تلك الحقبة ومختلف الحقب التاريخية الأخرى رغم مرور ما يزيد على الأربعين عاماً على نهاية الحكم الايطالي. وفي نظرنا أن تلك الظاهرة لم تحدث عفو الخاطر، بل

---

(1) كاتب هذا الفصل عمل رئيساً لمصلحة الآثار خلال الفترة ما بين 4 يوليو 1973 - 31 يناير 1980 وأشرف على تنفيذ السياسة الجديدة التي تستهدف توجيه التراث الثقافي لخدمة القضايا القومية. وقد وجد تجاوباً وتعاوناً بل وحماساً منقطع النظير من جميع العاملين في المصلحة على اختلاف مواقعهم فكانت الحفريات في جميع المجالات وخاصة في التراث الإسلامي وفي الحضارات الليبية القديمة، كما أنشئت مجموعة من المتاحف الجديدة في مختلف المواقع، ونشرت مجموعة من الدراسات باللغة العربية لتعريف الليبيين بتراثهم مثل تلك الكتب التي ألفها عبد الكريم الميار ومسعود شقلوف وعلي الترك ومحمود بوحامد وعبد العزيز النمس ومحمد عيسى ومحمد عريبي وسعيد حامد وصالح ونيس وعبد الحميد عبد السيد وغيرهم، ووضعت الأسس لمشروعين كبيرين بالاشتراك مع اليونيسكو هما مشروع دراسة المعالم الحضارية في وديان الجماهيرية، ومشروع المتحف الجماهيري، إضافة إلى موسوعة المساجد الليبية والمعرض الدائم للوثائق واللذين أعدا بمجهود جماعي من المصلحة ككل وتولى متابعتهما وتنفيذهما الأستاذ عبد الوهاب عليوة مراقب آثار طرابلس، والأستاذ مسعود شقلوف مراقب آثار بنغازي.

كانت نتيجة محاولة علمية عملية مخططة ومبرمجة للتعميق لعمليات التغلغل الثقافي وتجذيرها تاريخياً.

ويجب ألا نهمل ونحن في معرض الحديث عن التغلغل الثقافي دور الاتصال المباشر بين الايطاليين والليبيين في المعاملات اليومية على المستوى الفردي أو الجماعي. تلك الاتصالات التي أولتها الحكومة الايطالية عناية خاصة لما لها من أثر عميق على العلاقات بين الشعبين حاضرها ومستقبلها.

فعلى المستوى الرسمي كان هناك إهتمام خاص بالفئة ذات الاتصال المباشر بالايطاليين - فكانت العلاقات بها مستمرة من خلال التعامل اليومي. وكان اللقاء خارج العمل الرسمي في المناسبات وفي الأعياد الدينية والرسمية منتظماً سواء أكانت الأعياد إسلامية تخص الليبيين، أو مسيحية أو قومية تخص الايطاليين [1]. ويجب ألا يغيب عن الذهن أن القوي هو الذي يجني أفضال تلك الزيارات المتبادلة، فحضور المسؤولين الايطاليين للأعياد الدينية الليبية يفسر بأنه تعطّف واحترام وتقدير ومشاركة في أعيادنا، ودعوة الليبيين لحضور الأعياد الايطالية يفسر أيضاً بأنه تقدير وإحترام لليبيين الممثلين في أشخاص أولئك المدعوين للمشاركة في تلك الأعياد.

إضافة لذلك كانت الوفود الليبية ترسل إلى إيطاليا في مناسبات مختلفة للاحتفال والتهنئة وفي نفس الوقت لمقابلة المسؤولين وزيارة المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والمعالم الحضارية. ومثل تلك الزيارات كثيرة ومتكررة نذكر منها كأمثلة بعثة معلمي المدارس العربية التي أوفدت في سنة 1935، ووفد الليتوريو الذي أوفد في سنة 1936،

(1) هذه الاحتفالات تتكرر عدة مرّات كل سنة، اقرأ كأمثلة وصفاً لاحتفالات التهنئة برأس السنة في الرقيب العتيد 5 يناير 1923، واحتفال الحزب الفاشيستي في الزاوية بذكرى 28 من أكتوبر، ذكرى الزحف الفاشيستي على روما في الرقيب العتيد، 21 من فبراير 1929م والاحتفال بعيد الفطر في ليبيا المصورة 4 ـ 2 (نوفمبر 1938) ص 4.

والوفد الذي أرسل لافتتاح معرض نابولي للأراضي الايطالية الكائنة في ما وراء البحار والذي كان يضم كبار المسؤولين الليبيين وقاضي القضاة ونخبة من الأعيان ومعتمدي الليتوريو[1].

ذلك كان بالنسبة للأقلية ذات العلاقات المستمرة، أما بالنسبة للأكثرية فكان تواجدها ضرورياً في المناسبات القومية الايطالية وفي الزيارات الرسمية، حيث كانت تعقد المهرجانات الكبيرة ويحشد لها الآلاف من الأهالي، وتقام الزينات، وتظهر الزوايا بأعلامها، وتنتظم استعراضات الفروسية، وتقام الولائم[2].

فالسياسة الايطالية كانت تقوم على أساس أن التعامل مع الليبيين أمر طبيعي لا مجال لتفاديه، وللتعامل معهم والاستفادة منهم وجب إظهار نوع من التفهم والتقدير لثقافتهم وتراثهم وإشعارهم بذلك. وقد تقرر تدريس اللغة العربية للتلاميذ الايطاليين في المدارس الثانوية انطلاقاً من تلك السياسة. وكانت من ضمن التوجيهات المقدمة للمستوطنين الإيطاليين قبل مغادرتهم ايطاليا، ضرورة مراعاة الوضع الاجتماعي الجديد الذي سيعيشون فيه، خاصة أنهم سيتعاملون مع أناس يتميزون بحساسية خاصة فيما يتعلق بالدين، ولهم أيضاً تقاليد عريقة، وعادات موروثة، فعليهم بذلك إحترامها وإشعار المواطنين بذلك[3].

لقد كان الاتصال يومياً وعلى مختلف المستويات، فالايطاليون كانوا يعملون في مختلف المجالات ـ منهم صاحب المزرعة والورشة والدكان، بل وحتى صاحب عربية الركوب والجمّال العادي. وكانت أعدادهم تزداد إطراداً عاماً بعد عام وخاصة في أواخر الثلاثينات.

---

(1) إقرأ عن هذه الزيارات بالترتيب في ليبيا المصورة 1 ـ 1(أكتوبر 1935) ص 6، وليبيا المصورة 1، 11(أغسطس 1936) ص 2 وليبيا المصورة 5، 8 (مايو 1940) ص 7.

(2) مثل زيارة موسوليني التي تحدثنا عنها.

(3) Instituto Nazionale Fascista delle Previdenza Sociale (I.N.F.P.S) Anno XVII «Scienze Giuridiche politiche Sociale» op. 16, pp. 45 - 46.

وكونوا بذلك مجتمعاً قوياً منظماً تسنده الدولة وتدعمه مادياً وسياسياً. فكان الايطالي أياً كان وضعه يتمتع بامتيازات مادية، ويشعر بأن وراءه دولة تسنده، وتبدو عليه علامات اليسر، والقوة، والصحة.

وعلى النقيض من ذلك، كان المواطن الليبي. لقد أنهكته سنوات الحرب، وأتت على ما عنده، ولم تتح له فرصة التعلم خلال سنواتها. وكان للهزيمة أثرها السّيىء على نفسيته، وراعه أن يرى المخلصين من زعمائه يطاردون ويعلقون على أعواد المشانق. ورأى دولة غريبة تتولى مقدراته، وتستولي على أرضه لتقدمها لقمة سائغة لمواطنيها. فوقف يائساً لا حول له ولا قوة، يعاني متاعب العوز والفاقة والجهل والمرض، يواجه قوماً غرباء، مغامرين، نشيطين، يملؤهم التفاؤل بالمستقبل في الأرض الموعودة، وتسندهم دولة قوية متقدمة.

هذا الحاجز النفسي ظل مسيطراً رغم المعايشة اليومية، ورغم المحاولات التي بذلت في السنوات الأخيرة لتلك الفترة من أجل خلق نوع من التقارب، بل رغم المساعدات المادية الطفيفة التي قيل بأنها بذلت من أجل الرفع من مستوى المواطن الليبي، واتخذت مادة للدعاية الفاشيستية المبالغ فيها[1].

لقد كانت هناك هوة إقتصادية، علمية، ثقافية، تفصل المجتمعين الايطالي والليبي، كان تفوّق الايطالي نتاج ظروف تاريخية واجتماعية، وإضافة إلى ما وجد من سند ودعم في حكومته التي مكنته من السيطرة الكاملة على مختلف المجالات الادارية والسياسية في البلاد مضطرة المجتمع الليبي للبقاء على هامش الحياة فيها. فالتعامل اليومي كان

(1) مثل بناء المساجد والمدارس والمستوصفات ومنح القروض وقصر مهنة الرعي على الليبيين وبناء قرى زراعية للفلاحين الليبيين ـ وهي قرى بدائية إذا قيست بالمستوطنات الإيطالية المتقدمة ـ أنظر بالخصوص الصحافة المشار إليها وخاصة أعداد ليبيا المصورة في الفترة 1935 ـ 1949.

قائماً ولكن بصورة غير متكافئة. والآثار الثقافية كانت نتاج تلك العلاقة ـ ضعف واستسلام وقبول بالأمر الواقع ـ ولم يلُحْ حتى في الأفق الدولي ما يغير من تلك الصورة، حيث موسوليني كان يصول ويجول ويهدد ويتوعد خاصة بعد نجاحه في إحتلال الحبشة وتقويض المنظمة الدولية.

فالتغلغل الثقافي إذن على المستوى الشعبي كان أمراً طبيعياً للظروف السياسية والاجتماعية والإقتصادية والثقافية والنفسية التي مكنت المجتمع الايطالي من التفوق على حساب المجتمع الليبي الذي تجرع مرارة الهزيمة ومضاعفاتها وظل يعاني الشعور بالضعف ومركب النقص. فالايطالي أصبح بذلك المثل والنموذج لجميع الايجابيات. وليس بالامكان، بل ولا من الضرورة بمكان، إيراد أمثلة ونماذج لمختلف مظاهر التغلغل الثقافي في الأوساط الشعبية، فنكتفي بايراد أمثلة لمظهر خارجي ظاهري تسهل ملاحظته ليكون في ذات الوقت قرينة لمختلف المظاهر الأخرى البادئة والمستترة، ألا وهو المظهر اللغوي.

ففي مجال اللغة اليومية المتداولة نجد التأثر واضحاً وخاصة في المجالات الجديدة كالمؤسسات والآلات وبعض الاتسعمالات الطارئة. ففي المجال الاداري نجد الاصطلاحات تنقل بشيء من التحريف فكلمة «فيشو»، مكتب، هي الكلمة الايطالية (Uifficio)، وكلمة «دوماندا»، طلب، تحريف للكلمة الايطالية (Domanda) وكلمة برميسو، ترخيص، تحريف للكلمة الايطالية (Permesso) وكرابنيير، فئة خاصة من الشرطة، هي كلمة (Carabinière) الايطالية محرفة، وتريبونار، محكمة، هي كلمة (Tribunale).

وفي مجال الزراعة نجد بعض الاستعمالات الايطالية تجري على اللسان العربي بطريقة عفوية، فكلمة «اسطالا»، اسطبل، هي نفس الكلمة الايطالية Stalla وكلمة «تريبيا»، آلة الحصاد، هي نفس الكلمة الايطالية Trebia وكلمة «بيوجا» التي أطلقت على «أنابيب المطر الصناعي» هي نفس الكلمة الايطالية Pioggia مطر.

وفي مجال الصناعة نجد جميع أنواع الآلات وقطع الغيار تحتفظ بأسمائها الايطالية مع تحريف بسيط يقتضيه النطق العربي: «فوتشينا» ورشة Oficina و«موتور»، محرك Motore و«استيرسو»، مقود السيارة، «Sterso» و«فرينو»، فرامل «Freno» وهكذا.

وفي مجال اللهو والتسلية كانت تستعمل نفس الاصطلاحات الايطالية محورة بحكم النطق العربي «تياترو»، مسرح «Teatro» و«اتشينما»، خيالة «Cinema» و«اتشيركلو»، نادي أو سرك Circolo.

وفي مجال الرياضة، وخاصة كرة القدم كانت تستخدم نفس الاصطلاحات الايطالية «سكواردة»، فريق «Siquadra» و«بورتييري»، حارس المرمي، «Portiere» و«آلا»، جناح Ala وهكذا.

وكذلك في الأمور التي تخص الشؤون اليومية فكلمة «بوسطة»، بريد Posta و«تلجراف»، برق «Telegramma» و«تليفون»، هاتف «Telefono» ومرشابييدي، رصيف «Marcia piedi» ومثلها الكثير كانت كلمات لا يعرف غيرها للدلالة على مسمياتها. بل هناك بعض الكلمات التي كانت تجري على اللسان خلال الأحاديث بصورة مستمرة بحيث أصبحت وكأنها كلمات ليبية، أمثال: «فالصو»، مزيف، «Falzo» وفسارية، زهيد تافه «Fessaria»، إضافة إلى ما كان يتخلل الحديث أحياناً من الأمثلة وبعض العبارات الايطالية، ذلك عدا التقليد في طريقة الكلام، وتحوير الأسماء في تلك الفترة لتأخذ النغمة الايطالية، قاسم الفيتوري يختصر إلى توري، وبعض من يعمل مع الايطاليين خاصة الأطفال كان يطلق عليه اسم الايطالي الذي يعمل عنده، فعرف مجموعة منهم بأسماء راماسكو وكرادو ونينو.. الخ..

هذا والجدير بالذكر أنه قد حدثت ردة فعل قوية أثر هزيمة الايطاليين في الحرب وانسحابهم من ليبيا، وبذل اساتذتنا في المدارس الابتدائية في تلك السنوات جهوداً كبيرة في عملية التعريب، لا تعصباً ضد اللغة الايطالية التي كان من بينهم من يجيدها إجادة تامة، ولكن انطلاقاً من مبدأ وطني، ومع ذلك بقيت الكثير من الكلمات في لغتنا تستعمل إلى الآن، حيث ترد

على اللسان دون وعي بأصلها في أغلب الأحوال.

وقد ظهرت السياسة الثقافية الايطالية بوضوح عند ضم الولايات الأربع المكونة لساحل ليبيا، لتصبح جزءاً متمماً للمملكة الايطالية، بمقتضى المرسوم الصادر في 18 ابريل سنة 1938 والذي اشتمل على ما سمي بدستور الليبيين الايطاليين الذي يمنح ـ لدى الطلب وضمن شروط معينة لم يكن بالعسير توفرها ـ الجنسية الخاصة للمواطنين الليبيين حيث كانت هناك نصوص صريحة لمراعاة الفوارق الثقافية بين الايطاليين والليبيين. كما تنظمها الشريعة الاسلامية وذلك في المواد: 1، 4، 5، 7. وكون هذه الجنسية خاصة بالمسلمين المولودين في الولايات الليبية، فهي إذن ممنوعة عن الايطاليين ضمناً (المادة 4). ومن ناحية أخرى فإن القانون المذكور منع منح الجنسية الخاصة بالايطاليين الليبيين ولو بالطلب، فالنتيجة إذن أن ايطاليا ضمت الأرض لتصبح جزءاً من أراضيها، وأبقت على سكانها فيها على نفس أوضاعهم وخرجت بصيغة قانونية تحول دون امكانية استفادتهم من التغييرات الجديدة اقتصادياً واجتماعياً[1].

وقد وصفت الدعاية الايطالية الجنسية الخاصة هذه بأنها «الطريقة الوسطى بين سياستي الفصل والادماج، طريقة مثلى توفق بين مقتضيات العزة والكرامة بالاعتراف بحقوق مساوية لحقوق الايطاليين من جهة، وبين تعاليم الدين الاسلامي بضمان اتباع أحكام الشريعة في المسائل الخاصة من جهة أخرى»[2].

ويمكن القول بأن عملية الحفاظ على الجانب الديني الشرعي مسألة تقليدية في السياسة الايطالية، ولكن بدراسة بقية نصوص القانون وخاصة المادة 6 فقرة 4، والمادة 7، يتبين بأنه قد روعي فيه أيضاً مراعاة السياسة الفاشيستية العنصرية الجديدة التي أعلنت بعد التقارب

---

(1) أنظر نص الدستور وتحليلاته في ليبيا المصورة 4، (2 نوفمبر 1938) الصفحات 1 ـ 5.

(2) نفس المرجع السابق ص 2.

مع النازية الهتلرية ورفع شعار «حماية الجنس» (La difesa della Razza) وصدور القوانين المطبقة لها[1].

يتضح مما تقدم أن التغلغل الثقافي الايطالي شق سبيله عبر قنوات متعددة بطريقة مباشرة أو بصورة احتوائية وكانت المؤسسة الدينية في مقدمة تلك القنوات التي اضطروا لمواجهتها. وقد أدركوا منذ البداية قوة العواطف الدينية عند المسلمين وتأكدوا من خطورة المساس بها، فاتبعوا سياسة احتوائية بديلة، تقوم على اشعار المواطنين بتعاطفهم مع تلك المعتقدات، وحرصهم على المحافظة عليها، وتقديرهم واحترامهم لها، ومقابل ذلك محاولة التغلغل من خلالها داخل المجتمع بعد تعطيل الجانب الحركي منها وإعادة تنظيمها ضمن أجهزتهم.

وكانت المدرسة قناة أخرى، لا تقل أهمية، حاول الايطاليون التغلغل من خلالها ثقافياً في العمق الاجتماعي بالوصول إلى العائلة أو إلى القبيلة في مختلف أنحاء البلاد. فعمموا المدارس وزودوها بأحدث الوسائل التعليمية، واختاروا لها خيرة المدرسين، وحرصوا في مناهجها على كسب ثقة المواطنين، بتركيزهم على تدريس اللغة العربية والدين الاسلامي، ثم تقديمهم المعلومات المراد توصيلها في زحمة المواضيع والمواد الدراسية المختلفة. ولينفذوا سياستهم التعليمية بطريقة عفوية بعيدة عن الضجيج واثارة الشبهات، لم يتعرضوا للكتاتيب ولا للزوايا، بل ساعدوها على الإستمرار في اداء رسالتها التقليدية، وأنشأوا المدرسة الاسلامية العليا لسد حاجات البلاد من المتخصصين في

---

(1) ليبيا المصورة ـ 4، 9(يونيو 1939) ص 1، فيها إشارة إلى مقال نشر في مجلة حماية العنصر الإيطالية La Difesa Della Razza يدافع فيه صاحبه عن منع تزاوج الإيطاليين بالأفريقيين. وقد تناول القوانين العنصرية بالشرح رينزو دي فيليتس في كتابه.

Renzo de Felice, Gli Ebreil in Un Paese Arabo, Milano: II Mulino 1978, pp. 259-269.

مجالاتها ولتكون مانعاً عملياً تلقائياً من إلتحاق الطلاب الليبيين بالأزهر، واختلاطهم بالمعارضين السياسيين في الخارج.

وعن طريق جمعية الليتوريو العربية التي كانت تحت إشراف الحزب الفاشيستي كانت محاولة التغلغل بين الشباب بطريقة مباشرة. فقد انتظم في تلك الجمعية طلبة المدارس وغيرهم من الشباب الذين استهواهم زيها الموحد، وتمريناتها الرياضية وتدريباتها العسكرية الأولية، وكذلك برامجها المتمثلة في الزيارات والرحلات لمختلف المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية وللمعالم الحضارية.

وكان لأجهزة الإعلام دورها رغم محدودية إنتشارها بسبب تفشي الأمية وصعوبة الاتصال آنئذ، وبذلك كانت مقتصرة على النخبة المتعلمة التي كانت مقصودة في ذاتها وفي غيرها، بمعنى انتشار المعلومات عن طريقها بصورة عفوية وغير مباشرة بين مختلف فئات الشعب الأخرى، ومن ثم راجت مجموعة الجرائد اليومية الأسبوعية التي تركز على الجانب الدعائي المحض. ذلك باستثناء مجلة ليبيا المصورة التي كانت مجلة النخبة المثقفة، والتي كانت تقدم الجانب الدعائي بين مختلف الجوانب الأخرى، الأكاديمية والعلمية والثقافية. أما الاذاعة فكان نشاطها محدوداً ـ رغم خطورتها ـ بسبب عدم توفر أجهزة الاستماع الكافية والتي كانت كلها كهربائية في وقت كان استعمال الكهرباء منحصراً في دائرة محدودة ضيقة، وبرامجها كانت أغلبها باللغة الدارجة وكانت معظمها دعائية.

وكان للتراث الثقافي المتمثل في الحفريات الأثرية والأعمال المتحفية دوره غير المنظور، إذ مثل عملية تجذير تاريخية مزدوجة الهدف، استهدف جانب منها تعزيز ثقة الايطاليين في عمليتهم الاستعمارية وإقناعهم بأنها عملية استرجاع لحق تاريخي ثابت، واستهدف الجانب الآخر خلخلة شمولية انتماء الليبيين لوطنهم باشعارهم بأن البلاد لم تكن لهم وحدهم في يوم من الأيام.

ولعل أهم قنوات التغلغل وأكثرها فاعلية تلك التي امتدت عبر المعايشة اليومية والاتصال المباشر بين المجتمعين الايطالي والليبي. فكان الاتصال المباشر في شكله الرسمي يتم بين الايطاليين والفئة التي تتعامل معهم إدارياً بوصفها حلقة الاتصال بينهم وبين بقية أفراد الشعب. كما كانت الاتصالات تتم بصورة أخرى خارج العمل الرسمي في المناسبات وفي الأعياد وعن طريق الصداقات الشخصية وتبادل الزيارات. وكانت تنظم من آن لآخر في مناسبات مختلفة لقطاعات خاصة زيارات إلى ايطاليا. أما على المستوى الشعبي فكانت اللقاءات الرمسية تتم في فترات متباعدة وبصورة غير منتظمة في المناسبات القومية وعند زيارة كبار المسؤولين الايطاليين إلى البلاد. ولكن التأثر والتأثير كان يتم، بدون شك، من خلال المعايشة اليومية والتعامل اليومي حيث أن الايطاليين كانوا يعملون في مختلف مجالات الحياة وكانت بذلك المصالح بينهم وبين الليبيين متبادلة. وفي جميع الأحوال كان القوي هو الذي يؤثر في الضعيف. فالايطالي كان في وضع اقتصادي واجتماعي متميز تسنده حكومته القوية المسيطرة، أما الليبي فكان في وضع اقتصادي واجتماعي متخلف، لا سند له ولا قوة، وفي حالة نفسية بائسة، يتجرع مرارة الهزيمة ويعاني البؤس والفقر والحاجة. وفي تلك الحال أصبح الايطالي في نمط حياته وهيئته وممارساته المثل والنموذج. ومن ثم كان التغلغل الثقافي اليومي من خلال تلك المعايشة وذلك التعامل.

فالتغلغل الثقافي الايطالي في ليبيا إذن مر عبر قنوات متعددة تفاوتت في الأهمية والقوة والفاعلية، عن طريق المؤسسة الدينية، والمؤسسة التعليمية والاجهزة الاعلامية، والتراث الثقافي، وبالاتصال المباشر عن طريق التعامل اليومي. وكان الايطاليون في معظم الاحوال حريصين على تقديم مادتهم مغلفة، وضمن أشياء أخرى. كما كانوا حريصين على استعمال أسلوب الاستمالة والترغيب، دون الجبر والقوة، لاقتناعهم بأن ذلك هو الأسلوب الأمثل لضمان تحقيق عملية

التغلغل. وبذلك كانوا يتجنبون ما فيه إستثارة للعواطف، واستفزازاً للمشاعر، ويعملون على الوصول ألى أهدافهم بطريقة عفوية تلقائية.

أما إلى أي مدى نجحوا في تحقيق تلك المهمة فهي مسألة يصعب تقديرها بالنظر إلى إختلاف طبيعة الغزو الثقافي عن مختلف أشكال التسلط الأخرى. فأساليب تغلغله متعددة متلونة، بعضها منظور صريح، وأكثرها متخف مستتر. ووسائل تحكمه كثيرة ومتنوعة، بعضها ظاهري تتمثل فيه السيطرة المباشرة، وبعضها باطني يتجسد فيه الاحتواء الشامل. والهدف في جميع الأحوال واحد وهو محاولة السيطرة على العقول البشرية سيطرة كاملة، لضمان الحفاظ على جميع المكتسبات وضمان ديمومتها. وبالرغم من أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح بالصورة التي شاءها لها مهندسوها، إلا أن ما ترتيب عليها من أضرار، وما ألحقته من تشوهات، وما تسببت فيه من عاهات، ظلت المشكلة الرئيسة التي تواجه الشعوب بعد تحررها، فإذا كانت السيطرة السياسية قد انتهت باجلاء المستعمر، والسيطرة الاقتصادية قد تنتهي هي الأخرى بتعطيل استثماراته، فإن التشوهات الفكرية والعقلية ظلت قائمة، وتفاعلاتها المتجددة والمنعكسة سلبياً على مسيرة الإنسان والمجتمع ما زالت مستمرة، رغم الوعي بخطورتها، والمحاولات المكثفة لمواجهتها.

فتقدير المدى الذي وصلت إليه عمليات التغلغل الثقافية الايطالية، إذن ليست بالمهمة السهلة. وإذا أمكننا التخلص من الأشياء المنظورة والملموسة المتمثلة في العلامات والكتابات والكلمات الدخيلة، وهي أبسط الجوانب، في فترة استغرقت ما يزيد على الربع قرن (1943 - 1970) فإن هناك قضايا أخرى أكبر، أكثر أهمية وأشد خطورة، ترسبت في الأعماق وفي اللاشعور بفعل عمليات التغلغل تلك، وما زالت تتغذى وتنتعش من خلال عمليات التغلغل الثقافية الجديدة التي تأتينا طيّ موجات الأثير، وعبر الأقمار الصناعية، وفي أشرطة مسجلة، كل ذلك عدا الكلمة المكتوبة التي تقدم إلينا بمختلف

الأساليب في شكل خبر، أو مقال، أو قصة أو مسرحية. تلك المسائل الكبرى تحتاج في معالجتها إلى إمكانيات أكثر وجهد أكبر ووقت أطول.

إن معالجة تلك التشوهات الفكرية والعقلية أصبحت تمثل التحدي الأكبر الذي يواجهنا الآن. ومعالجتها يتطلب في البداية محاولة دراستها والتعرّف على حقيقتها. والدراسة لها جانبان: جانب خارجي موضوعي منظور، يتمثل في دراسة ظاهرة التغلغل الثقافي من حيث أسلوبها ووسائلها ومستهدفاتها ونتائجها. وجانب ذاتي إستبطاني غير منظور، يتطلب الغوص في أعماق الذات للتعرف على كوامنها، وتحسس أصالتها، وفرز الشوائب التي علقت بها. ومن خلال شقّي الدراسة تطرح قضية المعالجة. أنها قضية غاية في الصعوبة، ولكن في جميع الاحوال لا مناص من التجربة. وهنا تجدر الاشارة بأن دراسة مثل هذه القضية لا يمكن أن تكون بأية حال من الاحوال وقفاً على شخص معين، أو فريق محدد، أو مؤسسة مخصصة. بل هي دراسة مفتوحة مستمرة أساسها التجربة والخطأ، هي مسؤولية هذا الجيل الآن، ولكنها قد تكون مسؤولية الأجيال القادمة.

[illegible]

أما إلى أي مدى نجحوا في تحقيق تلك المهمة فهي مسألة [illegible]

رحم الله الاستاذ الدكتور صلاح االدين السوري
رحمة و اسعة و غفر له و اسكنه فسيح جنانه

فتقدير المدى الذي وصلت إليه عمليات التغلغل الثقافية الإيطالية، إذن ليست بالمهمة السهلة. وإذا أمكننا التخلص من الأشياء المنظورة والملموسة المتمثلة في العلامات والكتابات والكلمات الدخيلة، وهي أبسط الجوانب، في فترة استغرقت ما يزيد على الربع قرن (1943 ـ 1970) فإن هناك قضايا أخرى أكبر، أكثر أهمية وأشد خطورة، توسبت في الأعماق وفي اللاشعور بفعل عمليات التغلغل تلك، وما زالت تتغذى وتنتعش من خلال عمليات التغلغل الثقافية الجديدة التي تأتينا على موجات الأثير، وعبر الأقمار الصناعية، وفي أشرطة مسجلة، كل ذلك عدا الكلمة المكتوبة التي تقدم إلينا بمختلف